

# رسالة القلم

## إسلامية ثقافية شاملة

السنة الثانية . العدد الثامن . شوال ١٤٢٧ هـ . نوفمبر ٢٠٠٦ م

٨



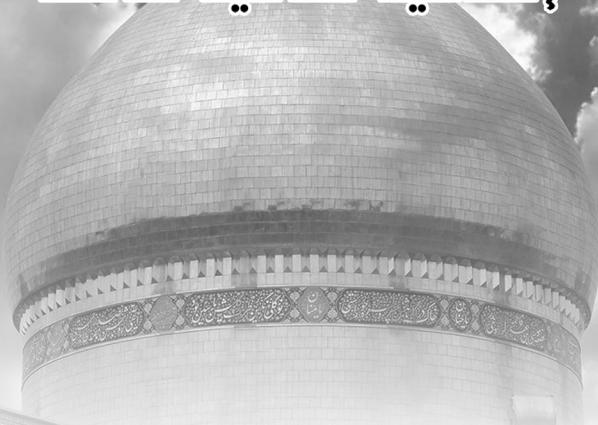
- ◆ بين الإسلام والمسيحية
- ◆ المنهج الموضوعي القرآني
- ◆ هل عبس النبي الأكرم (ص)؟
- ◆ دور الإمام الصادق (ع) في مواجهة الفرق المنحرفة
- ◆ أشراط الساعة وإرهادات القيامة
- ◆ التربية الجنسية للطفل
- ◆ سماع الدعوى الحسبية

رسالة  
القلم

Resalat Alqalam

# رسالة القمر

## إسلامية ثقافية شاملة



فصلية تصدر عن  
طلاب البحرين في الحوزة العلمية  
بمدينة قم المقدسة

برعاية  
مكتب البيان للمراجعات الدينية



- المشرف العام والمدير المسؤول:  
عبد الله علي الدقاقي
- رئيس التحرير:  
علي أحمد الكريابادي
- مدير التحرير:  
علي أحمد الجفيري
- هيئة التحرير:  
فاضل عبد الجليل الزاكي  
جعفر عبد المهدى شهاب  
سعيد حسن المادم



# كتابات



٥ بين الإسلام والمسيحية  
حوار مع الأستاذ الشيخ علي الشيخ

١٨ المنهج الموضوعي القرآني (القسم الأول)  
سعید میرزا التوری

٢٥ هل عبس النبي الأكرم ﷺ ؟  
حسین فؤاد المرزوق

٥١ بحوث موضوعية في العقيدة الإسلامية  
قصي الشیخ علی العربی

٨٤ دور الإمام الصادق علیه السلام في مواجهة الفرق المنحرفة  
محمد باقر الشیخ

١١٠ أشرطة الساعة وإرهاصات القيامة  
عبد الله البناء

١٣٠ الجاهلية قبل بعثة النبي الأكرم ﷺ (القسم الأول)  
السيد حسن الغريفي

١٣٧ الشخصية التغیریة للرسول الأکرم ﷺ  
السيد یاسین السيد قاسم الموسوی

١٤٦ معالم الدستور وخطوطه العامة  
عبد الله الدقاد

١٦٧ التربية الجنسية للطفل  
حسین جاسم عبد الله

١٧٦ النقد البناء  
علي المسترشد

١٩١ سماع الدعوى الحسبية  
علي فاضل الصدّي



## واندل الجيش الذي لا يقهر ...

وعاود الصهاينة الفرار عن جنوب لبنان، بعد الهزيمة النكراء، ولكن فرارهم هذا ليس كفراهم السابق. ونصر لبنان هذا ليس كنصره السابق، وكل منها وهجه، فالنصر السابق أيقظ الأمة من سباتها حيث كانت مخدراً بمجموعةٍ من المفاهيم والسلمات، والتي كان من ضمنها التسليم للأمر الواقع. وقبول أن إسرائيل قوّة عظمى لا تقهق، وأن من الحماقة والتهور والجنون أن يفكر إنسانٌ في مجابهة هذه القوّة. وأن من الخيال أن يتربّب لها يومٌ تزول فيه، فقبل ذلك الانتصار كان قول الراحل المقدّس بأن إسرائيل غدة سرطانيةٌ. وأنها لا بد وأن تزول من الوجود، ينم عن عقليةٍ رجعيةٍ لا تواكب الساحة ولا تعرف مقتضيات الزمان التي تفرض على كل دولةٍ أن تؤمن مصالحها عن طريق الارتباط بولي النعمـة (إسرائـيل). ذاك الانتصار اصطدم بتلك المفاهيم. فهزَّ الأمة وأيقظ شعورها بوجودها وكيانها.

وأما هذا الانتصار الباهر فظروفه كانت مختلفةً. فالعالم كان مراهاً على تفكـيـكـ حـزـبـ اللـهـ وإـيـادـةـ رـجـالـهـ، وـكـانـ مـتـآمـرـاـ عـلـيـهـ عـبـرـ سـلاـحـهـ، وـمـوـاـفـقـ دـوـلـهـ، وـفـتاـوىـ وـعـاظـهـ، وـآـلـيـاتـهـ كـانـتـ تـرـاـكـمـاـ لـعـهـدـ مـنـ الإـيمـانـ وـالـإـلـاـخـلـاصـ وـالـلـوـفـاءـ وـالـحـكـمـةـ وـالـعـقـلـانـيـةـ وـالـشـجـاعـةـ وـالـقـوـةـ الـعـسـكـرـيـةـ، ولـذـلـكـ كـانـتـ نـتـائـجـ هـذـهـ حـرـبـ عـظـيـمـةـ .

- فمن نتائجها أنها عزّت ذلك الإيمان. إيمان الأمة بكيانها وبوجودها وبخالقها. فهي باتت تدرك معنى «إِنْ يُنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَاَ غَالِبَ لَكُمْ» أكثر ما كانت عليه، فهذا درسٌ شاهدته بأم عينها على أرض الواقع.

- ومن نتائجها أنها رسخت المبادئ الإسلامية العزيزة حتى صارت ورداً يلهم به كل لسان. وتلك هي مبادئ الكرامة والعزّة والشرف والاباء والتضحية.

- ومن نتائجها - وحكمة قائد هذا النصر المؤزر- أنها وحدت المسلمين من أقصى الأرض إلى أقصاها وقاربت بين قلوبهم تقارباً ليس باليسير في عهدهِ تعلم فيه الأبواق الاستكبارية على بث الفرقة وتأجيج الفتنة والجاهلية بين أبناء الإسلام.

- وفي نهاية المطاف كان نصر المقاومة العسكري الساحق.

- والنصر الاستراتيجي الذي غيرَ المعادلات والحسابات داخل الكيان الغاصب وخارجه. ونعود لنؤكد ما قاله سيد المقاومة بأن هذه الانتصارات لم تتحققها الدموع وإنما حققها الدم الكريلائي الزاكي. متمثلاً بقول الشاعر:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يُراق على جوانبه الدم

رئيس التحرير

## بين الإسلام والملسيوية

حوارٌ مع الأستاذ الشيخ علي الشيخ (سلامه الله)

حاوره عبد الرؤوف حسن

أثارت تصريحات البابا الأخيرة ومن قبلها الإساءة إلى شخص الرسول الأعظم صلوات الله عليه الكثير من السجالات بين أتباع الديانتين المسيحية والإسلامية، وحركت الدفائن نحو الحديث عما يخص ويميز كل ديانة عن الأخرى، وبات هذا الموضوع متداولاً على ألسنة العامة والخاصة.

من هذا المنطلق، ونظراً لحساسية وأهمية طرق هذا الباب، ارتأت المجلة إجراء حوارٍ مع أحد الباحثين في هذا المجال، والذي كان في الأصل مسيحياً ونوره الله باعتناق الإسلام ومذهب أهل البيت عليه السلام، وهو ساحة الشيخ علي الشیخ، وقد رحب بالفكرة وكان معه اللقاء الآتي.

❖ في البداية حبذا لو توجزون لنا قصة رحلتكم الإيمانية من المسيحية إلى الإسلام؟

كانت ولادي ونشأتي في مدينة بغداد، ومن عائلة مسيحية كاثوليكية تؤمن وبعمق بتعاليم الكنيسة، وكانت أمars الطقوس الدينية من صلاة وصيام، وأذهب إلى الكنيسة بانتظام. وعندما تجاوزت العشرين تعمقت في نفسي هذه التعاليم والعقائد، ولم يكن ليخطر بيالي في يوم من الأيام أن أجث وأتحقق في هذه العقائد، ومن أهم المعتقدات التي كنت أؤمن بها هي أنَّ المسيحية فقط هي الدين الحق، وبباقي الأديان كلها باطلة، ومن لم يكن مسيحياً فهو لا يدخل الجنة مهما فعل، وبالمقابل فإنَّ المسيحي الذي يؤمن

بأنَّ المسيح هو ابن الله وهو الفادي والمخلص فإن مصيره لا محالة إلى الجنة  
مهما كان عمله.

وأيضاً كنت أحمل صورةً غير جيدةٍ عن الإسلام وال المسلمين توارثتها عن  
والدي والأقارب والقساوسة، فكنت أعتقد أنَّ المسلمين يسيئون إلى المسيح  
وأمِّه مريم العذراء عليهما السلام، ولذلك كانت هناك صورةٌ في ذهني سيئةٌ عن  
الإسلام.

وشاءت الأقدار الإلهية أن أحطُّ الرحال في إيران بعد انتصار الثورة  
الإسلامية بسنواتٍ، وابتعدتُ عن أهلي، وسُنحت لي فرصةٌ جيدةٌ للقاء  
بعض المسلمين المثقفين من العراقيين المقيمين في إيران، وكانت تدور بيننا  
النقاشات حول الإسلام والمسيحية، ولم تكن تنتهي غالباً بهدوءٍ، إذ أنهم  
كانوا يطرحون بعض الاشكالات عن المسيحية كنت أعجز عن الإجابة  
عنها، ولكن كنت أدعى أنَّ لكلَّ هذه الإشكالات أجوبةٌ عند القساوسة  
واباء الكنيسة، ولأول مرةٍ يقدم لي أحد الأخوة القرآن الكريم وبالتحديد  
سورة مريم عليهما السلام، وقال لي: هل تعلم أنَّ في القرآن سورةً باسم مريم عليهما السلام؟ نحن  
نقدسها ونحبها كثيراً! فتعجبتُ جداً وقلت له: إني أعتقد أنكم تسيئون  
للمسيح ولأمِّه مريم عليهما السلام كثيراً. فناولني القرآن وشرعت في قراءة سورة  
مريم عليهما السلام، والحقيقة أنَّ هذه السورة هزتي من أعماقي، فلم أصدق أنَّ هذا  
هو القرآن!! وهذا رأي القرآن في المسيح وأمِّه مريم عليهما السلام.

وبدأت أطلب من الإخوة بعض الكتب عن الإسلام وعقائده وتعاليمه،  
وبدأت بالمطالعة كثيراً فشعرت في نفسي ميلاً نحو هذه العقائد والتعاليم،

و كنت كلما أطالع كلما كان يزداد هذا الميل، وبده عقلي يستسلم لهذه التعاليم الرائعة، وأحسست أنّ هذه الاعتقادات وال تعاليم أقرب إلى عقلي وفطري من تعاليم آبائي وأجدادي، ولكن الشيطان كان يعني من الإذعان للحق، وشعرت أنّ صراغاً حقيقةً أعيشه في داخلي بين جنود الرحمن وجنود الشيطان، فجنود الرحمن يدفعوني للاستسلام لنداء الفطرة والعقل، وجنود الشيطان توسوس لي بأنك كيف تستطيع أن ترك دين آبائك وأجدادك؟

وهل إنّ كلّ هؤلاء العلماء والقاوسة في المسيحية كانوا غافلين عن هذه الحقيقة وأنت وحدك الذي اكتشفتها؟ وكيف ستتعامل مع أهلك إن تركت دينهم واخترت ديناً آخر ولاسيما أنك تعلم البعض الذي يحملونه إزاء الإسلام؟ ووساؤس أخرى كثيرة.

وفي الحقيقة فإنني فقدت القدرة على اتخاذ قرار اعتناق الإسلام بسبب هذه الوساوس، ولكن عقلي وفطري تصران على اعتناق الإسلام، وفي إحدى الليالي تضرعت إلى ربي ببكاءٍ وصدقٍ وطلبت منه العون لإنقاذِي من هذا الصراع، وفي صباح اليوم التالي شعرت في نفسي بقوّة عظيمةٍ لم أعهدُها من قبل، وأحسست بانشراحٍ عجيبٍ في صدري، واتخذت أصعب قرار في حياتي بكل طمأنينةٍ وسكون، وقررت أن اتبع سبيل الحق وأعتنق الإسلام مهما كان الثمن، وفعلاً اعتنقت الإسلام، وببدأت حياتي الجديدة بهذه الولادة السعيدة، بفضلٍ وتوفيقٍ من الله.

❖ ما هي أهم الأمور التي جذبتكم للإسلام وأثرت في شخصيتكم؟

في الحقيقة إنّ هناك أموراً كثيرةً جذبني للإسلام وأثرتْ فيَ، أهمها مسألة العقلانية والمعنوية، فعقائد الإسلام توافق العقل دائماً، وهي مع عميقها يشعر الإنسان بأنها تتناغم مع فطرته وعقله، وأداتها قويةٌ ومستحكمةٌ، وأيضاً الجنبة المعنوية في الإسلام، فهي الأخرى مع العمق الذي تنطوي عليه إلّا أنها تتلاطم مع فطرة وعقل الإنسان، فالإسلام دين الخبطة والإخلاص والعشق الإلهي، بل إنّ الإنسان المؤمن في الإسلام هو الإنسان العاشق لله تبارك وتعالى، كما جاء في القرآن الكريم حيث يقول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُجْبُونَهُمْ كَحْبَ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًّا لِّلَّهِ﴾<sup>(١)</sup>، فالمؤمنون في الإسلام هم الذين يحبون الله تعالى حباً شديداً أي يعشقوه، كذلك التعامل الرائع الذي يأمر الإسلام به أتباعه، ومن يطالع سيرة النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام من أهل بيته، يجد من المثل الأخلاقية والإنسانية في التعامل مع الآخرين في سيرتهم ما يبهر العقول ويحيّر الألباب.

وجنبة أخرى أعتقد أنها منحصرةٌ في الإسلام دون غيره من الأديان وهي شمولية الشريعة الإسلامية لكل جوانب الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان، فكل من يطالع الأحكام الشرعية والتي جاء بها النبي ﷺ قبل ما يزيد على أربعة عشر قرناً يتيقن بأنه وحيٌ من السماء، إذ كيف يمكن لإنسانٍ عاش في هذه الفترة وفي الجزيرة العربية التي لم تكن مهدًا للحضارة - كما هو مشهورٌ - أن يأتي بشرعيةٍ متكاملةٍ تشمل كل جوانب الحياة الفردية والاجتماعية وفيها أحكامٌ لأدق الأمور؟ إلّا أن نقول بأنه مرتبٌ بالسماء وإنّ هذه الشريعة الشاملة المتكاملة هي وحيٌ من الله تعالى إليه.

❖ هل تستطعون تلخيص أبرز عقائد المسيحية المتدولة حالياً؟ وهل هي مشتركةٌ عند كل الطوائف المعتقدة بالدين المسيحي؟  
نعم هناك عقائد كثيرة في المسيحية، ولكن الأساس فيها يمكن تلخيصه في ثلاث عقائد هي:

- ١- التجسيد وبنوة المسيح لله حقيقةً، أي أنَّ المسيح هو الله المتجسد.
- ٢- التثليث وأنَّ الله سبحانه له أقانيم ثلاثة هي:الأب والابن والروح القدس.
- ٣- الفداء، أي أنَّ المسيح قد فدى البشرية بدمه (بصلبه)، وصالح البشرية مع الله.

وهذه العقائد الثلاثة مشتركةٌ بين جميع الفرق المسيحية، وهنا أرى من الواجب الإشارة إلى هذه العقائد التي كنت أعتقد بها ويعتقد بها كل مسيحيٍ بشكلٍ مختصرٍ.

- ١- التجسيد وكون المسيح ابن الله: إنَّ الكنائس المسيحية على اختلافها تؤمن بأنَّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَام هو ابن الله بالمعنى الحقيقي لا بالمعنى المجازي، فهم يعتقدون أنَّ المسيح لم يخلق بل هو مولودٌ، وليس هذه الولادة جسمانيةً إطلاقاً، بل هو نورٌ ترشح من نور، وكما جاء في قانون الإيمان النيقاوي والتي تؤمن به كل الكنائس حيث ينصُّ: (أؤمن بِإلهٍ واحدٍ، أبٍ ضابطٍ الكل ...، وأؤمن بربٍ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، إلهٌ من إلهٍ، نورٌ من نورٍ، إلهٌ حقٌّ من إلهٌ حقٌّ، مولودٌ غير مخلوقٌ، مساوٍ للأب في الجوهر).

وهم يعتقدون بأنَّ كلمة الله تجسدت ولبسَت جسدَ المسيح، وكلمة الله صفةٌ ثابتةٌ قديمةٌ للذات الإلهية، فهي الله، وهذا يعني - كما يقولون - إنَّ الله زار البشرية بِمَسِيحِهِ.

٢- التثليث: إنَّ عقيدة الثالوث - التثليث - تعتبر السر الأول في العقيدة المسيحية، وقد تعلمتها منذ نعومة أظفارِي، ولا اعتقاد أنَّ هناك عقيدة مترسخةً في نفس كل مسيحيٍّ كعقيدة التثليث، ولكن بالرغم من هذا ففهمها مشكلٌ جداً، بل مستحيلٌ.

وتلخيصها: هو أنَّ المسيحيين يؤمِنون بإلهٍ واحدٍ هو الله، له ثلاثة أقانيم وهي (الأب، الابن، الروح القدس) وهذه الأقانيم متساويةٌ وأزليةٌ، وكذلك يعتقدون أنَّ هذه الشخصيات الثلاثة تمثل وتشكل شخصَ الله، وهذه الشخصيات متميزةٌ الواحدة عن الأخرى، وهذا التثليث في طبيعة الله ليس مؤقتاً، بل أبدِي وحقيقي، وهذه الشخصيات متساويةٌ جميعاً في جوهر الألوهية.

وفي الحقيقة فإنَّ هذه العقيدة مع كونها ظاهرةٌ في مخالفتها للعقل كما يصرح بذلك الكثير من علماء المسيحية أنفسهم، لأنَّهم يقولون بأنَّ  $1+1+1=1$ ، وهذا مخالفٌ للعقل، ولكن مع ذلك يعتقدون بأنَّ الوحي أي الكتاب المقدس (العهد الجديد) جاء بهذه العقيدة وقد أثبتُ في كتابي (هبة السماء) بأنَّ العهد الجديد الذي بين أيدينا لم يتطرق إلى هذه العقيدة أبداً، فليراجع.

٣- الفداء: وهي أيضاً من العقائد الأساسية في المسيحية، بل يمكن القول

بأنها أساس المسيحية، ويكن تلخيصها وفق نقاطٍ ثلاثٍ مهمّةٍ:

أ- إنَّ أبونا آدم عليهما السلام قد أخطأً منذ الزمن الأول، وقد انتقلت هذه الخطيئة إلى ذريته جميعاً بلا استثناءٍ سوي شخصٍ واحدٍ هو المسيح عليهما السلام لأنَّه ليس ابن آدم، بل ابن الله، والخطيئة تعني الانفصال والابتعاد عن الله، وتوجب العقاب، ولأنَّ الله عادلٌ فيجب أن يلقينا في جهنم، ولأنَّه رحيمٌ ويجربنا يريد أن يدخلنا إلى الجنة.

ب- إنَّ الله أرسل ابنه الوحد - حسب المسيحية - المسيح عليهما السلام وصلب ومات بالنيابة عن البشرية، وبصلبه وموته تمت المصالحة بين الله والبشر.

ج- كل من يعتقد بأنَّ المسيح هو الفادي والمخلص للبشرية فقد تظهر من الخطيئة الأصلية التي تكون بها عن طريق آدم عليهما السلام.

ولكن يبقى هنا سؤالٌ أساسي وهو: ما هو مصير الأنبياء عليهم السلام قبل عيسى عليهما السلام والمؤمنون بهم؟ هل تطهروا من الخطيئة أم لا؟ ويجيب المسيحيون على هذا السؤال جواباً أقل ما يقال عنه أنه مخالفٌ للفطرة والعقل وفيه إهانةٌ إلى أنبياء الله كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم عليهما السلام، فيقولون إنَّ المسيح عليهما السلام بعد قيامته نزل إلى الجحيم، ليحرر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام من جهنم وكل من آمن بهم، فالأنبياء كانوا في جهنم ينتظرون مجيء المسيح لإنقاذهم!!!

❖ يعدُّ الإنجيل الكتاب المقدس بالنسبة للمسيحيين، والقرآن الكريم كذلك بالنسبة للمسلمين، فما هي نظرة كلٍّ من الديانتين اتجاه كتابها وكيفية التعامل معه؟

في الحقيقة إنَّ المسيحيين يعتقدون أنَّ الكتاب المقدس الذي بين أيدينا

الآن، والذي ينقسم إلى عهدين (العهد القديم - العهد الجديد) هو وحيٌ من الله، والعهد القديم يعني به التوراة، والعهد الجديد يعني به الإنجيل، وهم يرفضون رفضاً قاطعاً أنَّ الله أوحى إلى عيسى المسيح عليه السلام كتاباً باسم الإنجيل، والإنجيل معربةٌ عن حكمةٍ يونانيةٍ وتعني البشارة، والعهد الجديد (الإنجيل) الذي بين أيدينا حالياً يتألف من 27 سفراً، وأول أسفاره هي الأناجيل الأربعة:

- ١- إنجيل متى.
- ٢- إنجيل مرقس.
- ٣- إنجيل لوقا.
- ٤- إنجيل يوحنا.

والذي يطالع هذه الأناجيل التي كُتِبَتْ كلها بعد المسيح وفي النصف الثاني من القرن الأول وحتى بداية القرن الثاني الميلادي سيجد فيها اختلافاً كبيراً فيما بينها، عكس القرآن الكريم وهذا يدلّ بوضوحٍ على أنَّ هذه الأناجيل هي قصصٌ كتبها هؤلاء لمعرفة قصة المسيح عليه السلام وحياته بشكلٍ مختصرٍ، وما يجدر الإشارة إليه أنه في نهاية القرن الأول الميلادي كان هناك ما يناهز المائة وأربعة أناجيل ورسالة، وفي القرن الرابع الميلادي رفضت الكنيسة كل تلك الأناجيل وقبلت هذه الأسفار الـ(٢٧) فقط.

وإنني كنت أوصي إخواني المؤمنين دائمًا بأنَّ الذي يريد أن يذوق حلاوة القرآن ويقف على روعته وجماليته ليقرأ هذه الأناجيل -مع الأمان من التأثير السلبي- أو العهد الجديد والقديم كله، ويلاحظ الفرق الواسع بين

الكتابين، ويفهم حقيقة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٢)</sup>.

#### ❖ كيف يتم التشريع في المسيحية؟ وما هو تقييمكم له؟

هذا السؤال مهم لأننا عندما نطالع أقوال عيسى المسيح عليه السلام في الأنجيل نجد أنّ المسيح أكدّ مراراً على ضرورة الاهتمام بشرعية موسى عليه السلام وأنه جاء مكملًا لا ناسخًا لها حيث يقول: لا تظنوا أنّي جئت لأبطل الشريعة وتعاليم الأنبياء عليه السلام، ما جئت لأبطل بل لأكمل، وهو عملياً التزم بالشريعة الموسوية، فقد اختتن في اليوم الثامن كما ينقل ذلك لوقا في إنجيله، ودفع ضريبة الهيكل، وقدم والده الذي ربه (يوسف) الذبيحة للرب حسب الشريعة، وقد أكدّ في تعاليمه على أنه يقبل شريعة موسى عليه السلام ويوصي تلاميذه أن يتبعوا أقوال معلمي الشريعة الموسوية، ولكنـا -للأسفـ نجد أنّ المسيحيين اليوم تركوا الشريعة الموسوية، بل وحتى المسيحية، وتمسّكوا بتعاليم شخص آخر هو بولس الذي لم ير المسيح أبداً، وجاء بشرعية جديدة تسمى اليوم بشرعية الخبرة، فالخبرة تمام الشريعة، ولذا نجد أنّ المسيحيين اليوم لا يختتنون ولا يلتزمون بالختان مع أنّ المسيح قد اختتن في اليوم الثامن كما ذكرنا، وهم يأكلون لحم الخنزير الخرم في الشريعة الموسوية وأبطلوا الحدود والديات وأغلب الأحكام التشريعية التي جاء بها موسى عليه السلام والتي أوصى بحفظها المسيح عليه السلام.

ولكنـا نجد من جانبـ آخر أنـ الكنيسة وفي الجامع الكنسيـة التي عقدـتها من المـجمع الأول في مدينة نيقـية سنة ٣٢٥ وإلى مـجمع الفاتيـكان الثاني سنة

١٩٦٣-١٩٦٥ شرّعتُ الكثير من القوانين والشرائع لتنظيم أمور المسيحيين والكنيسة، ولكنها تصرّ على رفض شريعة موسى عليه السلام.

#### ❖ ما المقارنة بين العقليانية في المسيحية والإسلام؟

يتضح الجواب على هذا السؤال من خلال جواب السؤال الثالث حول أبرز العقائد المسيحية والتي أشرت إليها آنفًا، إذ أن عقيدة التجسيد بالمعنى المسيحي محالٌ عقلاً لأنَّ التجسيد هو إما حلولٌ وإما اتحادٌ، والحلول يعني أنَّ الله المطلق يأتي ويحل في موجودٍ محدودٍ، وهذا محالٌ عقلاً، وكذلك الاتحاد يعني أنَّ موجوداً محدوداً أيًّا كان يتحد مع الذات الإلهية المطلقة وهو أيضًا محالٌ، وأيضاً عقيدة التثليث هي الأخرى مخالفة للعقل، وقد صرَّح بذلك الكثير من علماء المسيحية وإن حاول البعض مثل توما الأكويني وغيرهم توجيهها عقلاً ولكن مخالفتها للعقل واضحةٌ وظاهرةٌ بأدئني تأمل، إذ أنَّ ذات الله تعالى لا يمكن أن تشكلها أقانيم ثلاثة متمايزة، إذ أنه يؤدي إلى التركيب، والتركيب يعني الاحتياج، والله تعالى هو الغني المطلق، وأيضاً عقيدة الفداء كما ذكرناها، وهذا نجد أنَّ فلاسفة المسيحية وعلماءها يقولون بأنه يمكن أن تختلف بعض العقائد التي جاء بها الوحي العقل، وأعني بالعقل الضرورة العقلية، فالإيمان بتلك العقائد التي جاء بها الوحي مع مخالفتها للعقل لازمٌ وضروري.

#### ❖ ما هو تقييمكم للمسيحية المتبعة في زماننا؟

بعد مطالعتي العميقه لل المسيحية وجدت أنَّ المسيحية اليوم ليست هي

الدين الذي جاء به النبي عيسى عليه السلام، فعيسى كان يصرح مراراً على أنه رسول الله ونبيه، وأنه ابن الإنسان، وكان يدعو الله صريحاً بـإلهي، ولكن مع هذا نجد أنَّ المسيحية اليوم تلخص الألوهية بالMessiah عنوةً، وكذلك التثليث نجد في الأنجليل أنَّ المسيح لم ينطق بهذه العقيدة ولا مرةً واحدةً أبداً، وما جاء في آخر إنجليل متى يخالف ما ذكره لوقا وقس، ويعتقد الكثير من علماء المسيحية أنَّ هذه الفقرة أضيفت إلى إنجليل متى، فالمسيح لم يتحدث ولم يعلم هذه العقيدة أبداً، ولم تُعرف إلاً نهاية القرن الثاني الميلادي، واعترفت بها الكنيسة رسميًّا في مجمع نيقية سنة ٣٢٥، فهي من نتاج وخيال بعض آباء الكنيسة وليس من تعاليم المسيح عليه السلام.

وأيضاً عقيدة الفداء التي ذكرناها، فإنَّ المسيح عليه السلام لم يذكرها ولا مرةً واحدةً في تعاليمه كما تذكر ذلك الأنجليل التي بين أيدينا، بل أول من تكلم عنها هو (بولس) في رسائله المذكورة في العهد الجديد، ولذلك أعتقد أنَّ تسمية بعض المفكرين المسيحيين للمسيحية اليوم بالبولسية غير مجانبٍ للحق.

❖ كيف تحلوون تصريح بابا الكاثوليك السادس عشر عن الإسلام في هذا الوقت بالذات؟ ومدى ربطه بما سبقه من افتراءاتِ، كالتي تعرضت لشخص النبي الخاتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إنَّ ما صرَّح به البابا كان - بالنسبة إلى - شخصياً صدمةً، وقد تعجبت كثيراً من تصريحاته حول العقلانية في الإسلام والمسيحية، فهذه العقائد التي ذكرتها وغيرها الكثير والتي تعتقد بها الكنيسة الكاثوليكية التي يتزعمها

البابا والكنائس الأخرى كلها تخالف صريحاً العقل، ومع ذلك يدّعى بأنّ تعاليم الإسلام مخالفة للعقل فيه الكثير من العجب.

وأعتقد أنّ البابا بتصرّفه في هذا الوقت بالذات لا يخرج عن إطار الحملة التي يشنها الغرب في تشویه صورة الإسلام الحقيقة سواءً علم بذلك أم لا، إذ أنّ الغرباليوم تيقن بأنّ الحاجز الحقيقي في نشر ثقافته الشيطانية والمدمرة في العالم ولاسيما في الشرق الأوسط هو الدين الإسلامي الحنيف، وتعاليمه السمحاء، والتي ترفض الخلاعة والإباحية والظلم، ولذلك يسعى بكل ما أوتي من قوّة إلى تشویه الصورة الناصعة لهذا الدين، والبابا نفسه تفطن إلى هذه الحقيقة ولكن بعد فوات الأوان.

❖ بتصوّركم ما هو مستقبل العلاقة بين المسيح والمسلمين في السنوات القادمة؟ وهل هو آخذ في الصعود أو الهبوط؟

أعتقد أنه إذا كانت هناك نوايا حسنة لدى قادة الكنيسة المسيحية في ضرورة رص صفوف المؤمنين على مختلف أديانهم أمام هذا الهجوم الثقافي الإباحي الغربي الذي يقف عدواً لله والدين فيمكن الانطلاق من هذه النقطة للحوار بين الأديان الإلهية وتشكيل جبهةٍ موحدةٍ أمام هذا الخطر الذي يحدق بالعائلة البشرية كلها، وأيضاً إذا فهم هؤلاء القادة ضرورة احترام الأديان الأخرى وعدم المساس ب المقدساتها، فأعتقد أنه يمكن أن تكون هناك فرصة كبيرة للحوار والتقارب بين المسيحية والإسلام، ولاسيما أنه في عهد البابا السابق كانت العلاقات بين قادة الكنيسة المسيحية وعلماء

الإسلام وديةً وإيجابيةً، وأمل أن تكون هذه التصريحات للبابا كثيارة سوداء تنقشع، وتكون نقطة تحولٍ لقادة الكنيسة في التعامل مع الإسلام بشكلٍ صحيحٍ وعدم الانجرار وراء الخطط الخبيثة للغرب وثقافته، إذ الخاسر الوحيد إذا ما سادت لغة التشويه والتعرض للمقدسات بدلًا من لغة الحوار والتفاهم هو الدين والحقيقة، والرابع الوحيد هم أعداء الله والدين.

❖ أخيراً هل لكم كلمة تودون أن تختتموا بها حديثكم؟

أتقدم بالشكر الجزييل إلى جميع الإخوة العاملين في هذه الجلة الثقافية الفكرية الجميلة سائلاً الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لما يحب ويرضى.

### المواهش:

(١) البقرة: ١٦٦.

(٢) النساء: ٨٢.

## المنهج الموضعي في القرآن

(القسم الأول)

سعید میرزا النوری

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، والصلوة على رسوله الكريم وآلـه الطيبين الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ خَلْقَنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾<sup>(۱)</sup>.

تناول هذه المقالات مسألةً مهمةً وضروريةً على المستويين الفكري والعملي، وقد أولاها القرآن الكريم أهمية خاصةً وتناولها بصورةٍ مكثفةٍ ومركزةٍ وتفصيليةٍ، وجعلها عاملًا حاسماً في التعامل مع مختلف المسائل والقضايا، فمن النادر أن تمر عدة آياتٍ أو يتم طرح موضوع دون أن يشير القرآن لارتباطه بموضوع مقالاتنا، وقد ترددت في اختيار الاسم المناسب لهذه الأخلاقية القرآنية الاستثنائية، فهل أسميتها الموضوعية أو الحقانية أو الصدق أو البصيرة أو العدل أو التقوى، وقد كنت أفضل اختيار عنوانٍ قرآنٍ للتعبير عن هذه الأخلاقية، ولكن وجدت أن الأنس الشفافي العام ربما يؤيد اختيار مصطلح (الذاتية).

## ما هي الموضوعية؟

إننا نلاحظ أن كل إنسان وانطلاقاً من فطرته - وبقطع النظر عن مشربه وأمرئه - يدعى التزامه وعمله طبق الواقع، وهو التزامٌ تحت عليه الفطرة والوجدان الإنساني، ولكن في مقام العمل فكراً وحركةً، فإن هناك مناهج ومسالك مختلفةٌ يتبعها الناس في الوفاء بحق هذا الالتزام الفطري، فهناك من الناس من يرفع شعار الالتزام بالواقع وهو يخالفه في كل وجوده ويتبع في حقيقته واقع نفسه ذاته ويترك وفق تسويياتها ورغباتها، وهذا هو الإنسان الذي بصورةٍ كاملةٍ، حتى أنه لا يرى - شعورياً - انفصلاً بين ذاته والواقع؟!

والذاتية ذات درجاتٍ ومراتب وأنواعٍ، وهناك ذاتية أقل من الذاتية الكاملة حيث يلتزم بعض الناس الموضوعية في بعض القضايا ويتركون وفق الذاتية بالنسبة للقضايا الأخرى.

وهناك قسمٌ آخر من الناس تغلب عليهم صفة الموضوعية، فهم يرفعون شعار الالتزام بالحق والواقع، ويسعون بصورةٍ حقيقةٍ وواقعيةٍ للالتزام بهذا الشعار حتى لو خالف أدنى لمخالفة ذاتيّتهم وظروفتهم النفسية، والواقع المقصود هنا قد يكون حقيقةً موضوعيةً خارجيةً أو حقيقةً علميةً وعلقيةً أو حقيقةً فطريةً أو حقيقةً اعتبارياً أو مصلحةً واقعيةً وغيرها مما تحمل الفطرة الإنسانية للإنسان على الالتزام بها وتري حرمة الإخلال بها.

فالموضوعية إذن هي الالتزام الحقيقي بالواقع، والذاتية هي السجن داخل النفس والذات، وقد اهتم القرآن الكريم كثيراً بأخلاقيّة الموضوعية

كما اهتم كذلك كثيراً بما يقابلها من أخلاقية الذاتية. وقد عبر القرآن الكريم عن الموضوعية بتعابير مختلفةٍ من قبيل (الصدق، الإخلاص، الأمانة، التقوى، العدالة، الوفاء، التزام الحق، العلم، البصيرة، الإيمان، وغيرها من العباري)، كما عبر عن الذاتية بتعابير متعددةٍ من قبيل: (الظلم، الخيانة، الفسق، الكفر، التكبر، الجهل، العمى، إلهه هواء، وغيرها).

### ما هي المشكلة والخلل؟

ورغم هذا التأكيد القرآني المركّز والتربية القرآنية العميقه بمبدأ وأخلاقية الموضوعية والنهي والزجر عن ظاهرة وأخلاقية الذاتية، إلا أن مسألة الموضوعية والذاتية أخلاقيةٌ ومبدأٌ قرآنٌ شاملٌ ومستوعبٌ، يحث على الالتزام بالواقع الموضوعي، وينهى عن تحويل النفس والذات لمحورٍ واقعيٍ بدلاً عن الواقع الحقيقى، لم تلقى الاهتمام الثقافي والتربوي المطلوب في الأوساط الإسلامية.

فإنني وبحسب تبعي المتواضع لم أجده بصورةٍ كثيرةٍ تناول الموضوعية بصورةٍ جادةٍ كمبدأٍ قرآنٍ شاملٍ، كما أنها على المستوى التربوي والميداني لا نعير للموضوعية اهتماماً كبيراً.

ومن المؤسف أن أقول بأننا في الأوساط العلمية والاجتماعية، مشبعون بالذاتية، والموضوعية ليس لها إلا مساحةً محدودةً في حياتنا وثقافتنا! فنحن مشبعون بالأطر والمسبقات الضيقة والاستماتة في تبرير المواقف الذاتية وقولبة الأقىسة والبراهين وتؤييل الحقائق! وأصبح من علامات الإيمان

واليقين قوة الدفاع والجدل العقيم عن الميول والرغبات والمسبقات والأعراف والأشخاص، حتى لو غاب الصدق والحقانية والموضوعية، فأصبحت الميول الذاتية تطغى وترجح على تعاليم الوحي والفطرة والعقل والواقع والمصالح العامة والاختياز للحق والحقيقة، ووضعنا الروحي والفكري والاجتماعي يحتاج منا لوقفةٍ موضوعيةٍ صادقةٍ مع النفس لعرض واقعنا على بصائر الوحي والفطرة والمنطق، لنسائل أنفسنا أين نحن من موضوعية وحقانية القرآن الكريم والعترة المطهرة ﷺ؟!

لنحاول مثلاً أن نعرض مستوى تحردنا وموضوعيتنا في أحکامنا على أنفسنا والآخرين، على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنِ﴾<sup>(۲)</sup>، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمُنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(۳)</sup>.

ولنحاول أن نختزن موضوعية علاقتنا الاجتماعية ووفاءنا الحقوقية مع قول الرسول الأكرم ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). ولنجرب مدى موضوعيتنا في النظر للحق بعيداً عن النظر للرجال وفاءً لقول أمير المؤمنين ع: (اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال).

وهكذا فلنجرب أن نرجع لعشرات بل مئات النصوص القرآنية والروائية التي تحت على الموضوعية والحقانية والتجرد عن الذاتية في كل مناحي الفكر والمشاعر والمجتمع، ولنسائل أنفسنا بصدقٍ وموضوعيةٍ أين نحن

من بصائر النصوص الإلهية والمعصومية؟

سوف أتناول - بإذن الله تعالى - مبدأ وأخلاقية الموضوعية القرآنية في

بحثي هذا بالصورة التالية:

**أولاً:** التمهيد، وسوف أتناول فيه مفهوم الموضوعية وحدوده.

**ثانياً:** أقسام الموضوعية، وهو يمثل القسم الأساسي من البحث حيث أتناول فيه أهم أقسام ومظاهر الموضوعية بحسب التعليم والتربية القرآنية والتي يمكن حصرها بالحالات التالية: (الموضوعية مع الخالق سبحانه، الموضوعية مع الحق، الموضوعية القيادية، الموضوعية مع العمل الصالح، الموضوعية تجاه الغير).

**ثالثاً:** الموضوعية في الإطار الغربي والإسلامي، وهو يمثل مقارنة بين مبدأ وأخلاقية الموضوعية في الرؤية العلمانية الغربية وفي الرؤية القرآنية الإسلامية، وهي محاولةٌ أسعى من خلالها لإثبات أنَّ الموضوعية الحقيقية الشاملة لا يمكن تأسيسها إلَّا على قاعدة الرؤية التوحيدية المعنوية القرآنية، كما أسعى لاظهار زيف الدعوى الغربية والعلمانية بالامتلاك الحصري للموضوعية وإشكالياتها على إمكانية الموضوعية الإسلامية.

ونحن في سياق هذه المقدمة من الضروري الإشارة للأهمية القصوى والاستثنائية للموضوعية ثقافةً وتربيَّةً لاسيما للنخبة الحوزوية والمثقفة باعتبارها طلائع للوعي والعمل الاجتماعي، فإنَّ أي وجودٍ إنسانيٍ فرداً كان أو مجتمعاً لا يمكنه تحقيق التقدم الحقيقي في عالم المعنى أو عالم المادة بدون أن يحقق بتصورٍ مقبولٍ ملحوظاً في عالم الموضوعية والحقانية.

فالتقدم على مستوى تحقيق العبودية مع الخالق سبحانه، والتقدير على المستوى العلمي والمعرفي، والتقدير على مستوى العلاقات القيادية والاجتماعية والحقوقية، والتقدير في إنجاز وإدارة العمل والمصالح الاجتماعية مرهونٌ بصورةٍ أساسيةٍ بالالتزام الموضوعية وتذويب الذاتية في ذلك المجال الخاص، وهكذا فيمكننا أن نطلق هنا قاعدةً كليّةً نافذةً وهي: (لا تميز كثيراً أحياناً بين الأسماء والدعوى والشعارات لأنها ترتبط بالواقع الفعلي للسلوك وال موقف).

ومفاد هذه القاعدة هو أنّ أي تخلّفٍ أو جمودٍ أو تشتتٍ على المستوى الروحي أو العلمي أو الاجتماعي أو المادي أو الحقوقي فإنّه يكون مرهوناً بتخلّفٍ على مستوى الموضوعية والحقانية؟! كما أنّ أي تقدّم سواءً على مستوى الروح أو الفكر أو المجتمع أو المادة فإنّه يكون مرتبطاً بالتقدّم في عالم الموضوعية والحقانية. ومن هنا فإذا أردنا الانطلاق بوجودنا أفراداً أو مجتمعاً نحو أفقٍ مشرقٍ من التقدّم في عالم المعنيات والسمو الروحي والوحدة والألفة الاجتماعية، والرصانة القيادية، والكرامة الحقوقية، والتقدّم المادي، والإنجاز الإداري، فإنّنا يجب أن نجعل الموضوعية والحقانية الشاملة الشعار والإطار والداعم الناظم للمسيرة الإسلامية، كما نجعل الذاتية بكل أشكالها وصورها العدو اللدود الذي محاربه ومحذرته ونسحقه.

ويكِن في هذا المقام الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾<sup>(٤)</sup>، فلنغير ما بأنفسنا من ذاتية في أي مجال كان

نحصل على التقدم المطلوب في ذلك المجال.

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَقَبَّلُهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾<sup>(٥)</sup>، فالموضوعية والتقوى متاردةان في العرف القرآني، والمتقون موعودون بالخرج، أي العلاج لكل مشاكلهم ومعوقات وجودهم وتقديهم، وكذا هم موعودون بالرزق، والرزق الإلهي الذي لا نحتسبه بعيوننا وعقولنا المادية هو مفهوم شاملٌ لكل تقدمٍ وإفاضةٍ وعطاءٍ معنويٍّ وماديٍّ، فهل نسمع الدعاء ونبي النداء؟

والله من وراء القصد

### المواهش:

(١)الأعراف: ١٨١.

(٢)النساء: ١٣٥.

(٣)المائدة: ٨.

(٤)الرعد: ١١.

(٥)الطلاق: ٣ - ٤.

## هل هي لِّي النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ ﷺ؟

حسين فؤاد المرزوق

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عَبَّسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعْلَهُ يَزْكَىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدِّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزْكَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠).﴾

وتسمى أيضاً سورة السفرة، وهي سورة مكية تبحث مسائل مهمة، وتتحدث في بدايتها عن عتاب إلهي شديدٍ لمن يقدم الأغنياء والمترفين على الضعفاء والمساكين من المؤمنين فيرفع أهل الدنيا ويضع أهل الآخرة<sup>(١)</sup>، ومواجهة المؤمن بأسلوب غير لائقٍ مع أنه باحثٌ عن الحق، وهذا الشخص المؤمن هو عبد الله بن شريح بن مالك الفهري، وهو ابن أم مكتوم، وهو ابن خالة السيدة خديجة بنت خويلد<sup>(٢)</sup>، وكان قبل أن يسلم يدعى حصيناً، فسماه النبي ﷺ عبد الله، وهو صحابي جليلٌ شجاعٌ أسلم بمكة وصار من مؤذني النبي ﷺ بالمدينة المنورة، وأحد مشاهير قراء القرآن بها، وقد فقد بصره وعمي، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة أكثر من مرة عندما كان يغادر إلى غزواته، واستشهد في واقعة القادسية السنة ١٥ للهجرة وقيل ١٦ للهجرة وهو أعمى، وقيل توفي السنة ٢٣ للهجرة بالمدينة المنورة<sup>(٣)</sup>، أما الشخص العابس فهناك أنسٌ لم يقفوا على شخصية النبي ﷺ صاحب

الأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ وَالسُّجَاجِيَا الْحَمِيدَةُ، فَادْعُوا أَنَّ الَّذِي عَبَسَ وَتَوَلَّ هُوَ النَّبِيُّ الْمَصْطَفِي ﷺ وَالْعَيَّاذُ بِاللَّهِ، وَلَذِكَ كَانَ هَذَا الْبَحْثُ دَفَاعًاً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا لَسْتُ بِمَحْقُوقٍ بَلْ مُتَطَفِّلٌ صَغِيرٌ. وَالَّذِي أَطْرَحُهُ هُوَ مُجْرِدٌ قَنَاعَاتٍ شَخْصِيَّةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ التَّعْرِيْضِ بِأَيِّ شَخْصِيَّةٍ مِّنَ الشَّخْصِيَّاتِ الْعَلَمَائِيَّةِ. بَلْ مُجْرِدٌ مَّنَاقِشَةٌ فَكْرِيَّةٌ لِعَلَلٍ وَعُسُّى أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ رَضِيَّ وَلِلنَّاسِ فِيهِ صَلَاحٌ، وَأَرْجُو أَنْ لَا يَبْخُلَ عَلَيَّ الْأَسَاتِذَةُ وَالْإِخْوَةُ بِمُلاحظَاتِهِمْ لِتَقوِيمِ مَا اعْوَجَ فِي هَذَا الْبَحْثِ.

### لِمَادِيَ الْبَحْثُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقَضَائِيَا الْآنِ؟

قَدْ يَتَوَهَّمُ فِي بَادِئِ النَّظَرِ أَنَّ الْبَحْثَ عَنْ هُوَيَّةِ الْعَابِسِ فِي الْآيَاتِ الْمَبَارَكَةِ لِيُسَمِّيَ بِالْأَمْرِ الْمَهْمَمِ، أَوْ أَنَّهُ مِنَ الْمَوَاضِيعِ الْجَانِبِيَّةِ الَّتِي لَا تَسْتَحِقُ الْبَحْثَ وَهُنَاكَ مَوَاضِيعُ أُولَئِكَ الَّتِي لَا يَسْتَحِقُنَّ الْبَحْثَ عَنْهُمْ، إِذَاً أَنَّ الدَّعْوَى الْقَائِلَةَ بِعَبُوسِ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ فِي الْخَطُورَةِ بَدْرَجَةٍ يُكَافِئُهُ أَنْ تَكُونُ نَافِذَةً لِلْخَدْشِ بِشَخْصِيَّةِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ ﷺ وَالْتَّقْلِيلُ مِنْ مَقَامِهِ وَهُنْتَكَ حَرْمَتَهُ الْمَقْدِسَةُ سَوَاءً أَكَانَ بِشَكْلٍ مَّقْصُودٍ أَوْ لَا، وَلَذِكَ نَجْدُ حَالِيًّا كَيْفَ تَعْدُتُ بَعْضُ الصُّفَّحَ بِشَكْلٍ وَقَحٍ عَلَى مَقَامِ النَّبِيِّ الْمَهِيبِ بِهَذِهِ الرُّسُومِ الْكَارِيْكُوْرِيَّةِ، وَتَصْرِيْحَاتِ رَئِيسِ الْكَنِيْسَةِ الْكَاثُولِيْكِيَّةِ السَّخِيفَةِ فِي الْفَتَرَةِ الْأُخْرَى، بَلْ وَقَدْ بَلَغَتِ الْقَدَارَةَ مَسْتَوًى بَحِيثُ تُضْرَبُ قَبَةُ حَرَمِ أَبْنَاءِ ﷺ وَتَهْدَمُ بِدُونِ رِعَايَةٍ لِحَرْمَتَهُ، أَوْ أَنَّهُ نَجْدُ بَعْضِ الْكَتَابَاتِ الَّتِي تَنْتَقَصُ مِنْ مَقَامِ النَّبِيِّ بِقَصْدِهِ أَوْ بِدُونِهِ بِدَعْوَى مُحَارَبَةِ الْغَلُوِّ وَالْمَغَالِيْنِ، وَلَذِكَ لَا بُدَّ مِنْ

الطرق إلى القضية لا بما هي حادثةٌ تاريخيةٌ وحسب، بل دفاعاً عن رسول الله ﷺ عن أي شيء قد ينسب له وهو عنه بريءٌ وأي وصفٍ لا ينسجم مع مقامه الذي لا يدرك كنهه إلا الله سبحانه وتعالى.

### وقفة مع المثبتين:

يمكننا تقسيم الأشخاص القائلين بأن الآيات قد نزلت في الرسول ﷺ إلى قسمين :

القسم الأول: هو قسم يهون عليه اتهام النبي ﷺ بهذه الصفة أو بغيرها شريطة أن تبقى ساحة قدس غيره منزهةً وبريئةً، وذلك لخدم أغراضهم ومصالحهم، وهذا القسم خطيرٌ جداً. ومن أبرز مثيله أبو هريرة الدوسي الذي قد صرَّح أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ بِتَكْذِيبِهِ وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَثَرَ عَنْهُ عَلَيْهِ الْكَلَمُ أَبُو هَرِيرَةَ الدُّوْسِيِّ<sup>(٣)</sup>، فإن هذا الرجل قد كذب على رسول الله ﷺ لاستنقاص مقامه وتبرئة ساحة الظلمة، فيروي مثلاً أن النبي ﷺ قال: (إنما أنا بشرٌ أغضب كما يغضب البشر، وألعن كما يلعن البشر، فأيما عبدٍ سببته أو لعنته في غير كنهه فاجعله له رحمة)<sup>(٤)</sup>، ولو لاحظنا هذه الرواية نجد بأنها تستهدف ما ثبت عن النبي بلعن جماعةٍ من الصحابة، وبذلك تكون سمعة وماء وجه هؤلاء عند أبي هريرة أهم من سمعة وماء وجه الرسول ﷺ، فقالوا مثلاً إن الله أجرى الحق على لسان عمر وقلبه في الرضا والغضب، وإن الملائكة تحدثه، والملك ينطق على لسانه، وإن جبرئيل جاء إلى

النبي ﷺ قال له: أقرّ عمر السلام، وأعلمه إن رضاه حكمٌ، وغضبه عز!!<sup>(٥)</sup> فشهاد الله تعالى لعمر بأنه معصومٌ في الرضا والغضب بخلاف نبينا الكريم ﷺ فإنه يلعن ويغضب بغير حقٍّ، أو يررون أن النبي والعياذ بالله يستمع الباطل إلى أن يأتي شخصٌ يقول كفوا فقد جاء رجلٌ لا يحب الباطل، فيقال من؟ فيقول عمر<sup>(٦)</sup>، أو يررون عن النبي ﷺ أنه قال: ما أبطأ الوحي إلا ظننت أنه قد بعث إلى عمر<sup>(٧)</sup>، وغيرها الكثير مما تعج بها كتبهم مما يستهدف بشكلٍ واضحٍ مكانة النبي وحرمته المقدسة، ولذلك يهون على أمثال المدعو (....) أن يطعن بسيدة نساء العالمين عليها السلام التي هي بضعة الرسول ﷺ وروحه التي بين جنبيه ومن أغضبها فقد أغضب الله، في سبيل تسجيل منقبةٍ أو دفع مثابةٍ لأسياده فيقول أن أهل السنة يبحثون العذر لفاطمة في قضية غضبها على أبي بكر ولا يبحثونه لأبي بكر، فهي التي أخطأت ويقول بأنها لو لم تقبل أن يصلى عليها أبو بكر فهي منقصةٌ فيها<sup>(٨)</sup>، وأمثال هذا كثر من لا ينكرون في محاربتهم للإمام الحسين عليهما السلام والشعائر الإلهية، وبالجملة فإن هذا التيار يهدف إلى ضرب شخصية الرسول ﷺ بشكلٍ واضحٍ ومتقصدٍ، وما ذلك إلا لنصبهم له ولأهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

القسم الثاني: هناك قسمٌ من يثبتون مثل هذه الصفات إلى النبي الأكرم ﷺ غفلةً منهم وربما كان ذلك استناداً إلى شبهةٍ، وذلك ناتجٌ من اجتهادهم جزاهم الله خير الجزاء، فإنهم من يملكون طيبة قلبٍ وحسن نيةٍ وليس عندهم أي عداءٍ للنبي الأكرم ﷺ كعلمائنا الأبرار الأخيار، ولكن

يبقى تفسير الآيات الكريمة في الرسول يشكل مطعنةً ومنقصةً كبرى في شخصيته سواءً أكان ذلك بشكل مباشر أم غير مباشر، بشكلٍ واعٍ أم غيره.

#### منهجية البحث:

سنحاول البحث في ثلات طرقٍ لنفي هذه الصفة عن الرسول الكريم:

**الطريقة الأولى:** النظر في نفس الآيات والروايات لنرى هل يوجد فيها دلالةً على أن الشخص العابس في الآيات هو شخص النبي العظيم؟

**الطريقة الثانية:** النظر إلى القضية من جهة عصمة النبي ﷺ لنجد

بشكلٍ واضحٍ جداً أن أمثل هذه الصفات تتنافى مع عصمة النبي العظيم.

**الطريقة الثالثة:** النظر في مقام نبينا الخاتم، وهذا الطريق يمنع أي شبهاً أو خدشاً قد تتعرض لهذا المقام الرفيع بحيث لا يجرؤ أحدٌ على الانتقاد منه والتجربة عليه.

#### النظر في نفس الآيات المباركة:

﴿عَبَّسَ﴾: الآيات لما بدأت بفعلٍ ماضٍ فاعله ضمير الغائب (هو) العائد على شخصٍ غير مذكورٍ وغير مصرحٍ باسمه، ولا يمكن أن نقول بأن كل فعلٍ ذكر في القرآن الكريم كان فاعله ضمير الغائب فهو راجعٌ إلى نبينا الكريم، إذ أن هناك ضمائر في كتاب الله لا أحد يجرؤ أن يفسرها على أنها عائدةٌ إلى النبي ﷺ كما في قوله تعالى ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَى، وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّ﴾<sup>(٩)</sup>، نعم إذا كانت هناك قرينةً كأن يكون المقام يرتبط بالنبوة نستطيع إرجاع الضمير إلى النبي كقوله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ

أَدْنِي<sup>(١٠)</sup>. بل إن في سورة عبس تصرخ القرائن بوضوح على استحالة إرجاع الضمير للنبي كما سيأتي بيانه، إذن ليس بالضرورة أنه إذا لم يذكر الفاعل وكان عندنا ضمير نرجعه إلى النبي، فهذه الموجبة الكلية منتقضة بسالبٍ جزئية كما تقدم، فنفس (عبس) لا يوجد فيها دلالة على تشخيص هوية العابس لو بقينا نحن والآية المباركة.

﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾: الكلام فيها كالكلام في سابقتها فالضمير لا يدل على هوية المقصود به.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكِي﴾: هنا أشكال البعض بأنه لا بد أن نحمل الخطاب للنبي ﷺ لأن القرآن لا يخاطب إلا الرسول، ويمكن دفع هذا الإشكال بجوابين:

الأول: أن يكون من باب التعریض، بنسبة الفعل لشخص وإرادة شخص آخر من باب (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)<sup>(١١)</sup>، فأنت تخاطب شخصاً ولكن مقصودك الأصلي شخص آخر، وهذا ما يسمى في علوم البلاغة بإبراز غير الحاصل في معرض الحاصل، ويوجد على ذلك شواهد من القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿لَأَنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَ عَمْلُكَ﴾<sup>(١٢)</sup>، فإن عدم إشراك النبي مقطوعٌ، ولكنه عبر بالفعل الماضي الذي يدل على الواقع لأجل التعریض بالأخرين، وهذا نظير ما قد يُنسب للنبي ﷺ على فرض صحة النسبة أنه قال (لأن سرت فاطمة لقطعت يدها)، فهنا تعریضٌ بأن فاطمة العظيمة أقطع يدها فكيف بغيرها؟ فنقول في سورة عبس بأنه قد يكون الخطاب موجهٌ للنبي ﷺ إلا أن المراد منه الآخرين، فالنسبة في الواقع هي

نسبة ظاهرية، فهذا الإنسان العظيم لو عبس لصدرت في حقه المذمة واللامة فكيف بالآخرين؟ وإنما وجه هذا الخطاب للنبي ﷺ لوجود كمال الألفة بين الباري جل وعلى ورسوله الكريم وهذا نظير قوله تعالى ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾<sup>(١٣)</sup>، فليس دائماً المخاطب هو نفسه المقصود بالخطاب.

الثاني: قد لا تتم هذه النكتة البلاغية في هذا المورد فنجيب بجواب أقوى ينفي الإشكال من أصله، فنقول إنه ليس دائماً القرآن الكريم عندما يخاطب فهو يخاطب النبي الكريم، فهناك فرق بين نوعين من أنواع الخطاب:  
النوع الأول: خطاب يتعلق بقضايا التشريع والتبلیغ أو شرح أحوال النبي ﷺ، فهذا الخطاب لا ريب أنه موجه للرسول كقوله تعالى ﴿بَلَغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾<sup>(١٤)</sup>.

النوع الثاني: خطابات غير متعلقة بالتشريع والتبلیغ، فهذه يمكن أن توجه لغير النبي، بل هناك خطابات لا يعقل أن توجه للرسول الكريم كقوله تعالى ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَى، وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطِّي، أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾<sup>(١٥)</sup>، ففي هذه الآيات أيضاً جاءت بضمير غائب ثم عطفت للخطاب، أو في قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾<sup>(١٦)</sup>، فهذا خطاب الباري جل وعلى لواحدٍ من أهل جهنم يتوعده بالعذاب استخفافاً به، فهذا أيضاً خطاب لكن لا يستطيع أحد أن ينسبه للنبي ﷺ، فتبين أن هذه القاعدة التي أسسها المشكل وهي أن كل خطاب فهو موجه للنبي لا تحرى على إطلاقها، فليس في المقام ما يرجح كون المخاطب هو النبي ﷺ.

## النظر في الروايات:

الروايات القائلة بأن العباس هو نبينا الكريم ﷺ هي روايات من طرق العامة، وحاصلها أن الآيات نزلت في قصة ابن أم مكتوم الأعمى حيث (دخل على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أقرئني وعلمني ما أعطاك الله، وكرر عليه ذلك وعنه قوله قومٌ من صناديد قريش يناجيهم في أمر الإسلام فعباس النبي في وجهه وقال في نفسه الآن يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والعبيد، فعاتبه الله بهذه الآيات، فكان ﷺ حينما يرى ابن أم مكتوم يقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي فيكرمه حتى يستحي ابن أم مكتوم من كثرة إكرامه له<sup>(١٧)</sup>.

وهذه الرواية يمكن الاستدلال على بطلانها بوجوهٍ  
أولها: الرواية ضعيفةً جداً من ناحية السند إذا طبقنا قواعد الإمامية  
عليها في الجرح والتعديل.

ثانيها: أنها مقطوعة السند، فإن أقرب الرواية إلى الزمن الذي تنسب إليه الحكاية هم أنس بن مالك وابن عباس وعائشة، أما أنس فهو مدني والواقعة حدثت في مكة وكان صغيراً جداً، أما ابن عباس وعائشة فلما أن لا يكونا مولودين أو أنهما كانوا طفلين لا يميزان شيئاً.

ثالثها: روايات العامة مضطربة النقل مع اختلاف الروايات في تحديد من كان يناجيه الرسول ﷺ، ففي بعضها أنه عتبة وشيبة، وفي أخرى أنه جمعٌ من وجوه قريش منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة، وفي روايةٍ ثالثةٍ أنه عتبة والعباس وأبو جهل، وفي رابعةٍ أنه العباس وأمية وصفوان، وقد قيل بأن

ابن أم مكتوم لم يجتمع مع المذكورين في مكة<sup>(١٨)</sup>، وهذا موجب لohen الرواية.

رابعها: قول الراوي (قال في نفسه: الآن يقول هؤلاء الصناديد ) إذ أن الراوي لا ينقل إلا الأمور الحسية والحاصل أنه ينقل أمراً غبياً قلبياً لا سبيل إلى روايته لأنه لا يراه أو يسمعه أو يحس به لكي يسجله ويشهد عليه.

خامسها: هذه الروايات معارضة بما هو أحسن منها طریقاً والتي تدل على أن العابس هو غير النبي ﷺ، وستأتي الإشارة إلى ذلك عن قريب بإذنه تعالى.

سادسها: تعارض التفسير مع أخلاق نبينا العظيم ﷺ ومسلمات العقيدة كما سيتضح في طيات البحث إن شاء الله.

### إذن في من نزلت؟

قال الطبرسي في مجمع البيان: روي عن الصادق علیه السلام إنها نزلت في رجلٍ من بني أمية كان عند النبي ﷺ فجاء ابن أم مكتوم، فلما رأه تقدّر منه وجمع نفسه وعيّس وأعرض بوجهه عنه فحكي الله سبحانه ذلك وأنكره عليه<sup>(١٩)</sup>. وإذا لاحظنا الرواية سنجد أنها مرسلة الإسناد، فالطبرسي رحمه الله لم يذكر سنده إلى الإمام الصادق علیه السلام، والمعروف أن المراسيل ليست بحججة فلا يمكن الاعتماد على هذه الرواية، ولكن نجد بأن هناك مرجحات كثيرة تدفعنا لترجيح هذه الرواية رغم إرسالها، إذ أنها محتفظة بقرائن توجب الاطمئنان بصدورها عن المعصوم أو ترجيحيها على سابقتها لا أقل:

منها: أن الرواية موافقةً لما ذكره علي بن إبراهيم القمي في تفسيره حيث قال: نزلت في عثمان وابن أم مكتوم، وكان ابن أم مكتوم مؤذناً لرسول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وعثمان عنده، فقدمه رسول الله ﷺ على عثمان، فعبس عثمان وجهه وتولى عنه<sup>(٢٠)</sup>.

ومع أن القمي لم يصرح بأن ما ذكره رواية أولاً، ولكن باعتبار أنه كان بقصد بيان سبب النزول وسبب النزول لا سبيل لمعرفته إلا بالروايات فيتبين أنه كان مستندًا لرواية.

ومنها: أنه ليس بمستبعدٍ أن يصدر ذلك من أمثال عثمان، فإنه كان معروفاً بالزهو والخيلاء في التعامل، حتى أنه رُويَ أن عثمان يوم الخندق مر بعمار بن ياسر وهو يحفر وقد ارتفع الغبار من الحفر، فوضع عثمان كمه على أنفه ومر، فقال عمار:

لا يستوي من يعمر المساجدا يظل فيها راكعاً وساجداً  
ومن تراه عانداً معانداً عن الغبار لا يزال حائداً  
فالتفت إليه عثمان وقال: يا ابن السوداء إيهي تعني، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال له لم ندخل معك لتسب أعراضنا، فقال له رسول الله ﷺ: قد أقتلتك إسلامك فاذهب. فأنزل الله: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُونَ عَلَيِّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَأْكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٢١)</sup>  
<sup>(٢٢)</sup>

ومنها: أن هذه الرواية ليست مخالفةً لكتاب الله، بخلاف الرواية الأولى

فإنها مخالفة للقرآن الكريم الذي يصف الرسول بأنه ذو خلق عظيم وأنه رؤوف بالمؤمنين عطوف عليهم، وقد أمر الأئمة عليهم السلام أصحابهم بعرض الأحاديث على كتاب الله فإن وافقت كتاب الله فهي، وإن لا يؤخذ بها، ففي صحيحه ابن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إذا ورد عليكم حديثٌ فوجدم له شاهداً من كتاب الله عز وجل أو من قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما الذي جاءكم به أولى به) <sup>(٢٣)</sup>. وفي صحيحه هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (خطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنى فقال: أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلت، وما جاءكم بخلاف كتاب الله فلم أقله) <sup>(٢٤)</sup>.

ومنها: أن الآيات في مقام عتابٍ وتأنيبٍ وتوبیخ للعباس المتولي، وقد ورد عن ابن أبي عمیر عن حدثه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (ما عاتب الله نبيه فهو يعني به من قد مضى في القرآن مثل قوله ﴿لَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا﴾ <sup>(٢٥)</sup> يعني بذلك غيره) <sup>(٢٦)</sup>.

وقد أشكل بأن القول القائل بأنها نازلة في عثمان معارضٍ بما أثبته المؤرخون من أن عثمان لم يكن يومها في مكة، إذ أنهم يذكرونها في جدول المهاجرين إلى الحبشة فلم يكن في مكة وقتها، ويمكن أن يحاب عن هذا الإشكال بأن المؤرخين أنفسهم ينصولون ومنهم ابن هشام بأنه قد رجع ثلاثة نفر إلى مكة ومنهم عثمان <sup>(٢٧)</sup>.

وربما يورد أيضاً بأنه لا يعقل بأن الآيات الكريمة تندد بسلوك شخص عادي، بل لابد أن يكون لها منزلة ومقام ككونهنبي من أنبياء الله، ويحاب على ذلك بأن هذه القضية تشكل ظاهرة تستحق المعالجة حتى لو صدرت

من أتفه الناس كقوله تعالى ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنَيَا﴾<sup>(٢٨)</sup>، فإنها نازلة في أتفه الناس وهو الوليد بن عتبة حيث جاء بتقرير كذبٍ للرسول الكريم ﷺ، وحيث إن الظاهرة هذه منتشرةٌ فلكي لا تكثر أمثال هذه التقارير الكاذبة فلا بد من التبيّن لمعالجة هذه الظاهرة.

وعلى أي حالٍ، حتى لو لم تقبل هذه الرواية -مع أنها للإنصاف محتفظةً بما يوجب الوثوق بتصورها- فإنه لا يمكن الأخذ بسابقتها، فينتج أنه لا دلالة في الروايات على كون العابس هو الرسول الكريم ﷺ، فمقتضى الأدب مع رسولنا الكريم أن نقول لا أقل أنها نزلت في شخصٍ مجهولٍ لا نعرفه.

#### الآيات وعصمة النبي ﷺ :

الآيات الكريمة تذكر جملةً من العيوب والنقائص في هذا الشخص العابس، ولا يمكن أن ننسب واحدةً من هذه الإدانات إلى شخص الرسول الكريم ﷺ، إذ أنها تتنافى مع عصمته الثابتة بالدليل القطعي، ونذكر هذه الإدانات تباعاً:

١- الإدانة بالعبوس والتولي: والعبوس هو قطوب الوجه من ضيق الصدر<sup>(٢٩)</sup>، والتولي هو الإعراض بالوجه، هذه الصفة تكون مذممةً ومنقصةً لمن يفعلها إذا صدرت منه لغير مستحق، أما إذا صدرت لمستحقٍ فليست بمنقصةٍ. فأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: (أمرنا رسول الله أن نلقى أهل المعاصي بوجوهٍ مكفهرةٍ)<sup>(٣٠)</sup>، فبعض أهل المعاصي إذا واجهته بوجهٍ عبوسٍ يعرف

أنك غير راضٍ فيرتدع عن المعصية، فالعبوس للمستحق في محله كما في النهي عن المنكر وتأديب المستحق، بينما العبوس لغير المستحق يعتبر مذمةً ومنقصةً غالباً يكشف عن احتقار ولا يجوز شرعاً احتقار المؤمن.

وهناك دعوىً قائلةً بأن النبي ﷺ عندما عبس في وجه ابن أم مكتوم كان عن استحقاق لذلك، إذ أن الرجل قاطع النبي ﷺ وهو يهدى القوم فهو قد ارتكب شيئاً غير لائق، فلذلك استحق أن يواجه بالعبوس.

ويرد على هذه الدعوى عدة تحفظاتٍ:

١- أن الشخص المعبوس في وجهه هو رجلٌ مؤمنٌ طالبٌ للهدايٰ، وهو من الخاشين الخاسعين، وأكثر من ذلك هو رجلٌ أعمى، فلو صدرت منه مقاطعةٌ نفس عمّاه عذرٌ له فيما صنع لأنّه ليس له اطلاع على ما يحدث، بل وكما قال صاحب الميزان<sup>فتى</sup>: إن في التعبير بالجائي الأعمى مزيد توبیخٍ لما أن الحاج الساعي في حاجته إذا كان أعمى فاقداً للبصر وكانت حاجته في دينه دعته إلى السعي فيها خشية الله، كان من الحري أن يرحم ويخص بمزيد الإقبال والتعطف، لا أن ينقبض ويعرض عنه<sup>(٣١)</sup>.

٢- إن الآيات الكريمة وكما هو واضحٌ سياقها سياق إثبات البأس لا نفي البأس، وفي مقام العتاب والتنديد بالفعل لا التعذير، فلو كان الفاعل معذوراً فلماذا جاءت الآيات بالعتاب؟ فكان من المفترض أن تبرر الآيات فعل الفاعل وتلتمس له العذر وتدافع عنه، لا أن تأتي في مقام التوبیخ والتنديد.

٣- إن النظر في الآيات الكريمة يوضح بأن إقبال الشخص على القوم لم

يُكَل لغرض هدایتهم بل لأنهم أغنياء ﴿أَمَا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدِّي وَمَا عَلَيْكَ أَنْ لَا يَزَكَّى﴾، والتصدي التعرض للشيء بالإقبال عليه والاهتمام بأمره، ومحصل ملاك ما ذكر من العبوس والتولي والعتاب هو أنك تعنتي وتقبل على من استغنى واستكبر عن اتباع الحق، وما عليك أن لا يذكر وتتلهم وتعرض عنم يجتهد في التزكي وهو يخشى، والمعنى أنك لا تبالي بعدم تطهره من دنس الكفر والفجور، وهذا المعنى أنساب لسياق العتاب ثم الذي قبله ثم الذي قبله على ما صرخ به صاحب الميزان قليلاً<sup>(٣٢)</sup>، ولو دققنا أكثر سنجد بأن تفسير الآيات في النبي ينبع مصادمة القرآن لنفسه إذ أنه يقول ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيَزْكِيهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾<sup>(٣٣)</sup>، بينما في سورة عبس يقول: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزَكَّى﴾.

٤- لم يذكر أرباب السير والتاريخ أن صناديد قريش قد اجتمعوا بالرسول الكريم في مكة المكرمة ليسمعوا منه، بل إنه في بعض المسائل كانوا يوسطون أبا طالب عليه السلام وكان أبو طالب عليه السلام يدافع عن النبي عليه السلام والنبي دائماً يعلن عن صبره وصموده في مواجهتهم، ثم لو تزلنا بأن النبي عليه السلام قد اجتمع معهم هل كان رسول الله عليه السلام يتوكى أنهم سينتفعون منه أكثر من ابن أم مكتوم الصافي المخلص؟ فالرسول كان مميزاً لمعادن الناس ويعلم أن الكلمة لابن أم مكتوم أنفع منها لأبي جهل الذي كان يصرح بأن نقل جبال أبي قبيس أهون عليه من الشهادتين، بل إن النبي عليه السلام كان يعرف ذلك من أول الدعوة وكان يقول بأن لكل نبي فرعون، وفرعون هذه الأمة أبو جهل<sup>(٣٤)</sup>.

وعلى أي حال، يظهر بأن العبوس في الآية الكريمة لم يكن لشخصٍ يستحق مثل هذه المعاملة، وينتج بأن معاملة النبي ﷺ له كانت على خلاف العدل، إذ أن العدل هو إعطاء كل ذي حق حقه، وبالتالي يلزم نقض الغرض من بعثة النبي ﷺ وهو إرخاء العدل في المعمورة ببركة وجوده المبارك، والذي يعوض ما ذكرناه هو سيرة النبي ﷺ العملية، حيث إنه لم يُرَ إلا مبتسماً وكانت أسنانه تبدو كاللؤلؤ، بل إنه كان يعامل أصحابه معاملةً بحيث لا يحسب أحداً أكراضاً على رسول الله منه، وهذا الأمر واضحٌ من اطلع على رشحاتٍ بسيطةٍ من سيرته العطرة، بل إنه نقل في التاريخ بأن حادثةً جرت كالحادثة المروية في المقام، وبالعكس تماماً نجد بأن النبي ﷺ عالج الموقف بكل طيبةٍ وخلقٍ نبيلٍ فيري (إن أنصارياً جاء إلى النبي ﷺ يسأله، وجاء رجلٌ من ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: يا أخا ثقيف إن الأنصاري قد سبقك في المسألة، فاجلس كيما نبدأ بحاجة الأنصاري قبل حاجتك) <sup>(٣٥)</sup>، والأعمى أولى أن يعامل بهذه الطريقة.

- ٢- الإدانة بعدم المبالغة بتزكية العباد: فالمنطلق في تحركه كما تقدم ليس المدى والدين والرسالة، وإنما المنطلق في تحركه الغنى والفقير، وهذه الصفة لا تليق بمن هو دونه في المقام فكيف بسيد الكائنات على الإطلاق؟
- ٣- الإدانة بالتلهي: مع أن الرسول الكريم ﷺ ليس من وظيفته الربانية التشاغل عن هداية الناس، بل إن دعوة الرسول هي لشجب من يتلهي عن ذكر الله ويندد بالذين اتخذوا دينهم هواً ولعباً وحاشاه أن يلهو عن الذاكرين وال المتعلمين وطالبي المدى.

ثم إن هذه الصفات يلزم منها نفور العباد من النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظًا لَّا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾<sup>(٣٦)</sup>، مع أن الحرص على هداية الناس مما لا شك في حسنها ومطلوبيته بل إنه من الصفات الكمالية المدوخ بها النبي ﷺ في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(٣٧)</sup>، فهو يعز عليه الشيء الذي يسبب لكم العنت والمشقة، فهذا إن حدث فهو خل بمقام الرسالة ويؤدي إلى نقض الغرض من بعثته، ونقض الغرض من الخالق الحكيم محال.

والله سبحانه وتعالى قد صاغ شخصية النبي الكريم ﷺ في القرآن الكريم وقد أجلَ الله قدره عن هذه الصفات، إذ أنه ليس من صفاته ذلك مع الأعداء المنابذين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، فالله سبحانه هنا قد عَظَمَ خلق النبي ﷺ، والأية واقعة في سورة (ن) التي اتفقت الروايات المبينة لترتيب نزول السور على أنها نزلت بعد سورة (العلق)، فكيف يعقل أن يعظم الله خلقه في أول بعثته ويطلق القول في ذلك ثم يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخلقية ويذمه بمثل التصدي للأغنياء وإن كفروا والتلهي عن الفقراء وإن آمنوا واسترشدوا؟<sup>(٣٨)</sup>.

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣٩)</sup>.

ونستنتج من كل ما تقدم أن نسبة هذا الفعل للنبي يشكل مطعنةً

ومنقصةً وعيهاً اجتماعياً، ولا تليق المنقصة بالنبي ﷺ، إذ أنه أديب الله سبحانه والتكرم ونبل الشخصية يمنعان من ذلك وهذا حسان يصفه:

وأكمل منك لم تر قط عيني وأفضل منك لم تلد النساء  
خُلِقتَ مبرءاً من كل عيبٍ لأنك خُلِقتَ كما تشاء

### الآيات ومقام الخاتمية:

بمعرفة مقام النبي الخاتم ﷺ يمكن أن ندفع أي منقصةٍ وأي قشة مذمةٍ وأي صفةٍ تنسب إلى نبينا (أرواحنا لتراب مقدمه الفداء) من صفات عامة الناس بل الأنبياء والمرسلين ﷺ.

إن خاتم الأنبياء مكانةً وعظمةً لا يعرفها إلا الله سبحانه وتعالى ومن أعلمه الله بذلك، قال رسول الله بأبيه هو وأمي: (يا علي لا يعرف الله إلا أنا وأنت، ولا يعرفني إلا الله وأنت، ولا يعرفك إلا الله وأنا) <sup>(٤٠)</sup>. فلذلك كانت فاجعة الأمة بفقد النبي ﷺ فاجعةً لا يعلم عظمها إلا الله وعليه عليه السلام، فلا عجب حينئذٍ إذا تصفحنا التاريخ ووجدنا بأن العارفين الكامل مذ أن يذكر في محضرهم رسول الله ﷺ ينصرن الحزن ويذوب دموعاً تحت آماقهم، كما نقل لنا عن سيدة النساء (بأبي وأمي) وما قالته في رثاء أبيها:

نفسى على زفراتها محبوسةٌ يا ليتها خرجت مع الزفرات  
لا خير بعدك في الحياة وإنما أبكي خافةً أن تطول حياتي <sup>(٤١)</sup>  
وقال الإمام الباقر عليه السلام لعمرو بن سعيد الثقفي: (إن أصبت بعصبيةٍ في نفسك أو في مالك أو في ولدك، فاذكر مصابك برسول الله، فإن الخلائق لم

يصابوا بمثله قط<sup>(٤٢)</sup>.

ويقول الشيخ الوحيد الخراساني تعليقاً على هذه الرواية (والذي يحير العقل هنا هو تعليله ووصفه لله لله للمصاب بالنبي ﷺ بأن الخلائق لم تصب بمثله! والخليقة عنوان عام يشمل كل مخلوق، فكيف بجمعه الخلائق؟ وهو محلى بـأـلـ، فهو يشمل حتى الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين عليهما السلام، وما يرى وما لا يرى، فكل هؤلاء لم يصابوا بمثل رسول الله ﷺ، وهو تعليل لا يفهمه إلا خواص العلماء، الذين يدركون من هو النبي ﷺ وماذا فعل، وما هي مصيبة فقده، ومن الذين أصيبوا بهـ؟!

هذا بحرٌ محيطٌ لا يمكننا التوصل إلى قعره، فخوضه مقصورٌ على الأنبياء والأوصياء عليهما السلام، فهم يدركون أي أمواجٍ انطلقت من بحرةـ؟!  
وإذا كان لا يعرف النبي ﷺ إلا الله والإمام علي عليهما السلام، فلا سبيل لمعرفة مقام النبي الخاتم ﷺ، ولكن بالرجوع إلى كلام الله والروايات قد تترشح علينا شذراتٌ قليلةٌ من مقامه السامي، والقرآن الكريم إذا تكلم عن مقام الخاتم يقف العقل حائراً أمام هذا المقام الشامخ، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾<sup>(٤٣)</sup>، ﴿وَاللَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾<sup>(٤٤)</sup>، وعندما يأتي إلى رسولنا الكريم نجد أن نفس هذه الرحمة ينسبها إلى رسوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٤٥)</sup>.

من أهم الصفات لله سبحانه وتعالى هي صفة الغنى قال تعالى: ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾<sup>(٤٦)</sup>، وعندما نأتي إلى سورة التوبة نجد أن الغنى يعطيه لنبيه ﴿وَمَا نَقْمُدُ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾<sup>(٤٧)</sup>.

وأيضاً صفة الرأفة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يصف بها نفسه تارةً ويصف رسوله بأنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وإذا أتينا إلى مقام جبرئيل عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾<sup>(٤٨)</sup>، هذا الموجود العظيم يأتي إلى الإنسان الكامل ويخضع له ففي ليلة المعراج حين دنى نبينا الكريم فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى دنوًّا واقتراباً من العلي الأعلى، قال له جبرئيل عليه السلام: (تقدمن يا رسول الله ليس لي أجوز هذا المكان ولو دنتُ أفلةً لاحتقتُ)، وفي رواية أخرى قال: (ما وطأ بي قطُّ مكانك)، فإنه عليه السلام قد بلغ من القرب ما لم يبلغه أحدٌ من الأولين والآخرين، وأصبح فانياً في الله لا يريد إلا ما أراده الله، ولا يكره إلا ما كرهه الله، ولا يفعل إلا ما يحبه الله، فانياً في إرادة الله، وترك الأولى هو التفاتُ للأدنى بمعنى أنه منشغل بشيء آخر غير الله، وهذا لا يتناسب مع مقام الفناء الذي بلغه نبينا الكريم، فكمالية النبي تقتضي أنه دائمًا الفاعل للأفضل، فهو مرتبط بجانب الملائكة، ومطلع على أسرار الأعمال وحقائقها، ويعرف منافع ومضار الأعمال والمصالح والمجازفات الواقعية، ثم إن موجبات ترك الأولى ثلاثة: إما نقصُ في العلم، وإما الغفلة من سهوٍ أو نسيان، وإما التربية الخاطئة، ولا يمكن أن ننسب واحدةً من هذه الصفات للنبي الخامن، أما الأولى والثانية فواضحةٌ لما تقدم من أنه مطلع على حقائق الأشياء بعلمه الحضوري، وأما الثالثة فقد ثبت أن النبي الكريم هو تربية الله سبحانه وتعالى، قال الصادق الأمين عليه السلام: (أدبني ربِّي فأحسنِ أدبي)<sup>(٤٩)</sup>، وفي رواية (أنا أديب الله وعلى أدبي)<sup>(٥٠)</sup>، وهل هناك مربٌّ أفضل من الله تبارك وتعالى؟

قال تعالى حكايةً عن إبليس: ﴿فَيُعِزُّكَ لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾<sup>(٥١)</sup>.

تركز هذه الآية المباركة على مقام المخلصين، فقد استثنى الشيطان مجموعةً من البشر لا يمكن من غوايتم وهم المخلصون، فالمانع الذي بسببه لا يمكن إبليس من الغواية هو أنهم خلصون.

فالإخلاص على قسمين:

١- **الإخلاص في العمل**: وهو أن يخلص في أعماله ووظائفه الدينية إلى خالقه وسيده ومولاه في قبال الشرك الأصغر وهو الرياء أو أي غرض غير أخروي، وذلك كما في قوله تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلُكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾<sup>(٥٢)</sup>.

٢- **الإخلاص في الذات**: هو أن النفس في ذاتها بلغت مقام المخلصين، ولذلك نجد في الرواية (من أخلص لله أربعين يوماً فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)<sup>(٥٣)</sup>، وهذا لا يعني الانفكاك بين الإخلاص في الذات والإخلاص في العمل لأن الإنسان لن يصل إلى مرحلة الإخلاص في الذات إلا إذا أخلص في العمل، فكل مخلصٍ مخلصٌ ولا عكس، إذ أنه قد يخلص الإنسان في عمله بأن يقصد الله سبحانه وله ولكن لا يطرق ذاته الإخلاص، فالإخلاص في الذات قليلٌ جداً، وبالجملة إن هناك أناسٌ قد خلصت أنفسهم لا يمكن الشيطان من غوايتم ولا إشكال ولا ريب أن سيدهم وأعلاهم نبينا محمد وآلـهـ الأبرار عليهـ السلامـ، ولا يمكن القول بأن نفسه هي التي وسوسـتـ لهـ العـبـوسـ وليسـ الشـيـطـانـ، إذـ أنـ نفسـ المـخلـصـ قدـ بلـغـتـ إلىـ

مرتبةٌ من الطهارة والعلو بحيث أصبحت مخلصةً، وهذا خُلُفُ كون النفس موسوسةً، إذ هي رذيلةٌ لا طهارة، والخلاصة أن طرق الغواية والموسسة منفيَة عن الإنسان الكامل، وهل هناك أكمل من سيد البشر محمد ﷺ؟ فالنبي قد وصل إلى مقام قال عنه الباري عَسَى أَنْ يَعْشَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا<sup>(٤٤)</sup>، فنسبة مثل هذه الأفعال إلى من بلغ هذا المقام قد يكون أذيةً لرسول البشرية ﷺ، وبمعرفة المقام تنتفي كل شبهةٍ وأي منقصةٍ قد تنسب لمقام الخاتمية، وبمعرفة المقام بل طيف من هذا المقام يكون حبنا وتعاملنا مع الإنسان الكامل مختلفٌ، فهذا أحد أصحاب الرسول يتمنى أن يفدي النبي من الشوكة.

ولذلك أي فجيعةٌ هذه، وأي مصيبةٌ أعظم مما حدث في حياته قبل موته، وفي وجهه دون ظهره حتى بكى ابن عباس وقال: (إن الرزية كل الرزية يوم أحيل بين رسول الله وكتابه)، بل إن مما يفطر ناموس الطبيعة ويجهل له عرش الجبار هو ما قيل في حقه وفي حضرته المقدسة وكلها تعنى واحدٌ وهو المذيان والعياذ بالله<sup>(٤٥)</sup>، وقد بلغ من الأذى الذي تلقاه النبي الخاتم ما بلغ حتى قال ﷺ: (ما أؤذى نبي مثلما أؤذيت)، ومن العجيب أن البعض في هذه الأيام يقول في تأويل هذه الرواية أن إيزاء النبي هنا لا بلحاظ إيزائه هو، فكثيرٌ من الأنبياء قد أوذوا أكثر مما أؤذى النبي الإسلام، وإنما المقصود بالإيزاء هنا الإيزاء بلحاظ إيزائه في أهل بيته عليه السلام، كما قال النبي: (فاطمة بضعةٌ من آذاما فقد آذاني)، ولعمري إن هذا المشكل قد تناهى قدر الإيزاء الذي لاقاه النبي الإسلام في حياته وبعد مماته، وتناهى القاعدة

الفلسفية (كلما ازدادت المظاهرية ازداد البلاء)، فبني الإسلام أكبر مظهرٍ من مظاهر أسماء الله تعالى، وبالتالي فالباء الذي لاقاه أكبر بلاء، وإذا أحب الله عبدهاً غته في البلاء غتّاً، وكلما ازداد العبد إيماناً ازداد بلاء.

وحتى لو سلمنا جدلاً أن النبي لم ينل من الأذى الظاهري الكثير فيبقى إيزاده أعظم من إيزاد بقية الأنبياء، فإن الجناية الحقيرة تعظم مع عظم الجني عليه، وليس أعظم من نبي الإسلام صلوات الله عليه.

مع أن ما لاقاه أهل بيته عليهم السلام ليس بالشيء البسيط، فالآلة لم ترَ حرمته في أهل بيته عليهم السلام، ولكن نجد التاريخ يذكر لنا أنواع البلایا والمصائب التي نزلت على نبينا صلوات الله عليه، سواءً على المستوى النفسي أو البدني، فهذا يستهزئ به، وهذا يغري الصبيان بمحاربته، وذاك يتهمه بالجنون والسحر، وأخر يلقي على ظهره الشوك والأوساخ وهو ساجدٌ، إلى غير ذلك من الأمور التي ذكرت في التاريخ، وقد قاتل عليه السلام ومعه علي عليه السلام، حتى جرح في جبهته الشريفة وكسرت مقدمة أسنانه، وهذا ما لم يحدث له في كل حياته، فأي جبهةٍ جرحت يومئذ؟ وأسنان أي فمٍ كسرت؟ لقد تزلزلت أركان العالم، فالعالم قشرُ والنبي لبه، وإذا تضرر اللب بما قيمة القشر؟

في ذلك الظرف قالوا له: يا رسول الله ادع عليهم، فرفع يديه إلى السماء

وقال: (اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون!)

وأنتم الكلام بكلام للعارف الواسع الميرزا جواد الملكي التبريزي رحمه الله  
حيث قال: (إن الذي عليه عقيدة أهل الإسلام كافةً أن نبينا صلوات الله عليه أشرف خلق الله كافةً، وأنه سيد خلق الله، وأنه حبيب الله، وورد في المعتبرة عنه صلوات الله عليه أنه

أول خلق الله، وأنه دنا في معراجه من ربه مقاماً لم يقدر جبرئيل عليهما السلام أن يصلي عليه، وأنه (دنى فتدلى)، فكان قاب قوسين أو أدنى، دنوًّا واقتراباً من العلي الأعلى)، وأنه اسم الله الأعظم، وأنه صاحب الوسيلة والخوض، والشفاعة الكبرى، وأنه المثل الأعلى، وأنه واسطة بين الله تعالى وجميع المكبات، وأنه الحجاب الأقرب، وطرف الممکن بالجملة يعرف أنه من الله تعالى بمكانةٍ يغبطه بها الأولون والآخرون، من الأنبياء والمرسلين عليهما السلام، والملائكة المقربين عليهما السلام، وأنه لا يمكننا أن نصل إلى كنه معرفته، وأما معرفة حقه فيكفي في ذلك حديث لولاته<sup>(٥٦)</sup>، وأنه علةٌ غائيةٌ لجميع الخلائق، وأنه رحمة للعالمين...<sup>(٥٧)</sup>.

اللهم عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفي نفسك لم أعرف رسولك، اللهم  
عرفني رسولك فإنك إن لم تعرفي رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني  
حجتك فإنك إن لم تعرفي حجتك ضلللت عن ديني، برحمتك يا أرحم  
الراحمين وصل اللهم على أشرف خلقك أجمعين وآلـه الطيبين الطاهرين،  
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

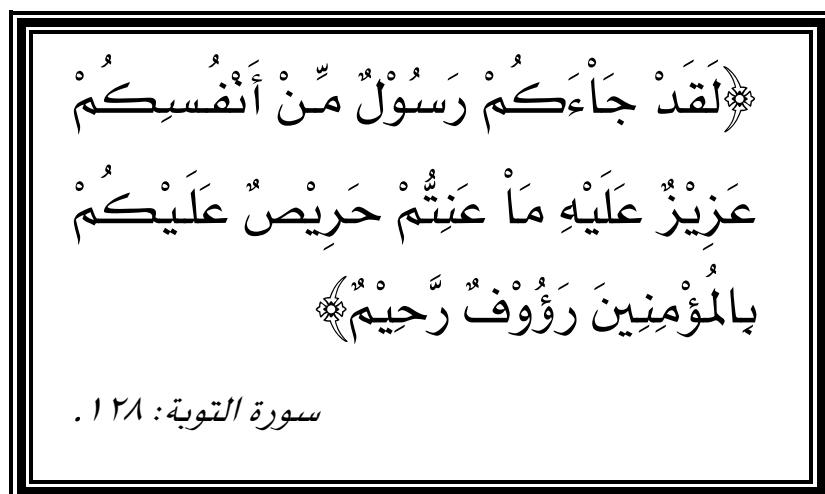
## المواهش:

- (١) تفسير الميزان . ٢١٩: ٢٠
  - (٢) أعلام القرآن / عبد الحسين الشبستري ص ٤٢.
  - (٣) شرح نهج البلاغة ٤ : ٦٨.
  - (٤) صحيح البخاري عن أبي هريرة ج ٧ ص ١٥٧ ، وصحيف مسلم ج ٨ ص ٢٥ عن أبي هريرة أيضاً ومثلها في مسند ابن راهويه ج ١ ص ٢٧٥ ح ٢٤٧ جرير عن إبراهيم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة.

- (٥) راجع : فيض القدير للمناوي ٢:٢٧٨ ، وطبقات المحدثين ٢:٣٤ ، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف ٤٨٦/٧ ، والطبراني في الأوسط ٢٤٢/٦ ، والكبير ٤٨/١٢ ، ومجمع الزوائد ٦٩/٩ ، وفي كنز العمال ١٠ / ٣٦٥ عن مصادر متعددة بروايات كثيرة .
- (٦) مسنن أحمد بن حمبل ج ٣ ص ٤٣٥ .
- (٧) راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتلي ج ١٢ ص ١٧٨ .
- (٨) التسجيل الصوتي له مشهور ومتواجد بكثرة في المواقع الحوارية بل إنه قد قال هذه الكلمة في شريط أصدره هو .
- (٩) القيامة: ٣٢-٣١ .
- (١٠) النجم: ٩-٨ .
- (١١) تفسير العياشي ١٠/١ والكافي : ٦٣١/٢ حدیث ١٤ معتبرة عبد الله بن بکیر، ثم قال الكلینی: وفي روایة أخرى عن أبي عبد الله علیہ السلام قال : معناه ما عاتب الله عز وجل به نبیه ﷺ فهو يعني به ما قد مضى في القرآن مثل قوله ( ولو لا أن ثبتناك لقد كدت ترکن إليهم شيئاً قليلاً ) عن ذلك غيره .
- (١٢) الزمر: ٦٥ .
- (١٣) يس: ٢٢ .
- (١٤) المائدة: ٦٧ .
- (١٥) القيامة: ٣٢ .
- (١٦) الدخان: ٤٩ .
- (١٧) الدر المنشور : ج ٤١٨/٨ نقلًا عن الحاكم وابن مردويه .
- (١٨) قال ابن العربي الفقيه : أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون أنه أمية بن خلف والعباس، وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا، ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانوا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما ولا حضرا معه وكان موتهمما كافرين أحدهما قبل الهجرة والآخر بيدر ولم يقصد فقط أمية المدينة ولا حضر عنده مفرداً ولا مع أحد الثلاثة راجع تفسير القرطبي : ج ٢١٢/١٩ .
- (١٩) مجمع البيان : ٦٦٤ .
- (٢٠) تفسير القمي ج ٢ ص ٣٩٨ .
- (٢١) الحجرات: ١٧ .
- (٢٢) تفسير القمي ج ٢ ص ٣٢٣ .

- (٢٣) الكافي : .٥٥/١
- (٢٤) الكافي : .٥٦/١
- (٢٥) الإسراء: .٧٤
- (٢٦) تفسير العياشي، ورواه الكليني.
- (٢٧) السيرة النبوية لابن هشام الحميري ج ٣ ص ٨١٨
- (٢٨) الحجرات: .٦
- (٢٩) مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ص ٥٤٤
- (٣٠) الوسائل ،باب ٦، من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما ،حديث ١ ،وقد ورد في الأحاديث إذا لقيت الكافر فالله بوجه مكفهر ،قيل : المكفهر ،المتعبس الذي لا طلاقة فيه ،وقد اكتفوا بالرجل إذا عبس ،يقول : لا تلتفه بوجه منبسط ،تاج العروس ،ج ٣ فصل الكاف من باب الراء ،ص ٥٢٨ .
- (٣١) تفسير الميزان: ج ٢٠ ص ٢١٩
- (٣٢) المصدر السابق: ص ٢٢٠ .
- (٣٣) الجمعة: ٢.
- (٣٤) الدر المنثور للسيوطى ج ٦ ص ٢٦٩
- (٣٥) منية المريد ٢٧٢ .
- (٣٦) آل عمران: ١٥٩ .
- (٣٧) التوبة: ١٢٨ .
- (٣٨) تفسير الميزان: ج ٢٠ ص ٢٢٣
- (٣٩) الشعراء: ٢١٥ .
- (٤٠) مختصر بصائر الدرجات.
- (٤١) حياة فاطمة الزهراء عليهما السلام للقرشي ص ٣٠٦ .
- (٤٢) الحق المبين ص ٩٦ .
- (٤٣) الأعراف: ١٥٦ .
- (٤٤) الأعراف: ١٥١ .
- (٤٥) الأنبياء: ١٠٧ .
- (٤٦) فاطر: ١٥ .
- (٤٧) التوبة: ٧٤ .

- (٤٨) الحافظة: . ٤٠
- (٤٩) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص ٢٠٢
- (٥٠) مستدرك الوسائل ج ٧ ص ٣٢
- (٥١) الحجر: . ٤٠
- (٥٢) العنكبوت: . ٦٥
- (٥٣) عدة الداعي لابن فهد الحلي ص ٢١٨
- (٥٤) الإسراء: . ٧٩
- (٥٥) راجع صحيح البخاري (كتاب المغازي، بباب مرض النبي ووفاته) وصحيح مسلم (كتاب الوصية، بباب ترك الوصية) والروايات في هذه الحادثة قد وصلت إلى حد التواتر الإجمالي لا أقل.
- (٥٦) إشارة منه قلبي إلى ما في الصحيح من أن الله قال مخاطباً نبيه (لولاك لما خلقت الأفلاك) بحار الأنوار ج ١٥، ص ٢٨، ح ٤٨، وج ٥٧، ص ١٩٩، ح ١٤٥
- (٥٧) المراقبات ص ٢٥٧



## **بِلَوْثٌ مُوَضِّعَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ**

شرح تفصيلي لشرح الباب الحادي عشر بصيغة سؤال وجواب  
(القسم الرابع)

قصي الشيخ علي العربي

س ٦١: ماذا يريد القرآن الكريم من الناس من خلال هذه الآية الشريفة؟

ج: طبعاً قبل الإجابة نقول: ما هو المراد من التعبير بأولي الألباب في الآية الكريمة؟

الحقيقة إن التعبير بأولي الألباب - في هذه الآية وآيات عديدة أخرى في الكتاب العزيز - إشارة لطيفة إلى أرباب العقول، لأن اللب من كل شيء خيره وحالصه، ولا شك أن العقل هو خير ما في الإنسان، وهو عصارة وجوده الإنساني.

من هنا يجث القرآن الجيد الناس من أولي الألباب على التفكير في هذا الخلق البديع والعظيم، ليصيب كل واحد منهم - بقدر استعداده وقدرته على الاستيعاب - من هذا البحر العظيم الذي لا ساحل له ولا قعر، ويرتوي من منهـل أسرار الخلق العذب.

حقاً إن هذا الكون العظيم بما فيه من نظام متقن وبديع ونقوش رائعة ولوحات خلابة كتاب بالغ الع神性، كتاب في كل حرف من حروفه، وكل سطر من أسطره دليل ساطع على وجود الله الخالق المبدع ووحدانيته، وتفرده<sup>(١)</sup>.

إن هذا النّقش الساحر الآسر للقلوب، المثبت في كل ناحية من نواحي هذا الكون العريض يشد إلى نفسه فؤاد كل لبيب وعقله شداً - يجعله يتذكر خالقه في جميع الحالات، قائماً أو قاعداً، وحين يكون في فراشه نائماً على جنبه، ولهذا يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾، أي: إنهم مستغرقون كامل الاستغراق في التفكير الحيوى حول هذا الكون الرائع ونظامه البديع ومبدعه ومبديه.

ولقد أشير - في هذه الآية - إلى الذكر أولاً، ثم إلى الفكر ثانياً، ويعني ذلك أن ذكر الله وحده لا يكفي، إن الذكر إنما يعطي ثماره القيمة إذا كان مقترباً بالفكرة، كما أن التفكير في خلق السماء والأرض هو الآخر لا يجدى ولا يوصل إلى النتيجة المتواخة ما لم تقترب عملية التفكير بعملية التذكر، وبالتالي لا يقرن الفكر بالذكر، فما أكثر العلماء الذين يقفون - في تحقيقاتهم الفلكية والفضائية - على مظاهر رائعة من النظام الكوني البديع ولكنهم حيث لا يتذكرون الله ولا ينظرون إلى كل هذه المظاهر بمنظار الموحد الفاحص، بل ينظرون إليها من الزاوية العلمية المجردة البحتة، فإنهم لا يقطفون من هذه التحققيقات ما يترتب عليها من التنتائج التربوية والآثار الإنسانية مثلهم في ذلك مثل من يأكل طعاماً ليقوى به جسمه فلا يكون لما يأكله أي أثر في تقوية فكره وروحه.

## س٦٢: ماذا يعطى التفكير والتدبر في أسرار الخليقة، وفي نظام السماء والأرض؟

ج: إن التفكير في أسرار الخليقة وفي نظام السماء والأرض يعطي

للإنسان وعيًا خاصًا ويترك في عقله آثاراً عظيمة، وأول تلك الآثار هو الانبهار إلى هدفية الخلق وعدم العبثية فيه، فالإنسان الذي يلمس المدفأة في أصغر أشياء هذا الكون كيف يمكنه أن يصدق بأن الكون العظيم بأسره مخلوق من دون هدف، ومصنوع من دون غاية.

لو أننا نظرنا في تركيبة نبتة معينة للاحظنا أهدافاً واضحة فيها، وهذا نلاحظ مثل تلك الأهداف في قلب الإنسان وما فيه من حفر وصممات وأبواب وبطون، فكل شيء فيه مخلوق لغاية وجعل لهدف، وكذا الحال في طبقات العين، بل وحتى الأجفان والأظافر، كل واحد منها يؤدي دوراً ويحقق غاية، فهل يمكن أن يكون لهذه الأجزاء الصغيرة جداً بالنسبة للكون العظيم أهداف واضحة وغايات ملحوظة، ولا يكون جموعه المتمثل في الظاهرة الكونية المائة العظيمة أي هدف مطلقاً؟ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾<sup>(٢)</sup>.

إن العقلاة لا يمكنهم وهم يواجهون هذه الحقيقة الساطعة إلا أن يقولوا بخشوع هذه الجملة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾، أي: ربنا إنك لم تخلق هذا العالم العظيم وهو الكون الذي لا يعرف له حد، وهذا النظام المتقن البديع إلا على أساس الحكمة والمصلحة، ولهدف صحيح، فكل هذا آية وحدانية، وكل هذا ينزعها عن اللغو والعبث<sup>(٣)</sup>.

لهذا يأتي الطريق الثاني هنا للدليل السمعي لوجوب المعرفة وهو من خلال السنة الشريفة، ومن الجدير ذكره هو إن الكثير من الروايات والخطب والأدعية والزيارات تتضمن أدلة لوجوب المعرفة، ومنها في مقام بحثنا حيث

يقول السعدي: (قال النبي ﷺ: وَيْلٌ لِّمَنْ لَا كُلُّهَا بَيْنَ حَيَّهِ ثُمَّ لَمْ يَتَدَبَّرْهَا)،  
النبي ﷺ يتوعد بالويل وأنت كما تعلم - قارئي الكريم - إن الويل كما  
ورد في الروايات هو واد سحيق في جهنم - نستجير بالله -.

النبي ﷺ يتوعد على من لاك هذه الآية المباركة، يعني أنه لم تتجاوز فمه،  
ولم تدخل إلى قلبه، إنما فقط تعلم قراءة هذه الآية وتعلم قواعد التجويد  
فيها، أي إنه لم يتدبّر فيها، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفْفَالُهَا﴾<sup>(٤)</sup>.

نعم ويل للذى لم يتدبّر آيات القرآن الكريم التي تمثل برنامجاً للهداية  
الإلهية، والوصفة الطبية الشافية تماماً، والتدبّر في القرآن هو ما تقتضيه  
فوائد الكثيرة، لأن القرآن لا يفيد إلا من عمل به، ولا يعمل به سوى الذي  
يتدبّر فيه فيفهم.

بل إن التدبّر في القرآن هو الوسيلة الوحيدة للعمل به، إذ أن الله تعالى  
أودع كتابه الكريم نوراً يهدي البشر إلى ربه العظيم، فيؤمن به، وبعد  
الإيان يطبق شرائعه، من هنا ليس على الإنسان سوى أمر واحد هو  
الانفتاح على القرآن، واستعداد التفهم له، وهذا يكون بالتدبر فيه.

يقول الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ  
اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُّلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ  
إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾<sup>(٥)</sup>.

إن القرآن ذاته نور، وليس علينا أمام النور إلا أن نفتح أبصارنا لنراه،  
ونرى به الأشياء جميعاً، والتدبّر في القرآن لا يعني تحمل آياته الكريمة آراء

وأفكاراً إضافية، كلا، بل التسليم لعلوم القرآن والتأمل في معاني آياته وتبصر الحياة عبرها، والسعى نحو فهم حقائق الطبيعة، وآفاق النفس بها. وهنا يكمن الفرق بين تفسير القرآن بالرأي الذي نهى عنه الدين أشد النهي، وبين التدبر في القرآن الذي أكد عليه الدين أشد تأكيد. وقد اختلط على البعض هذان الأمران، فحجب عن نفسه نور الفرقان زاعماً أنه فوق مستواه.

بلى إن البشر لا يرقى إلى مستوى القرآن، ولكن شعاعه كما الشمس لا تزال تشرق على العيون البصيرة، فمن احتجب عنه باتباع هوىً أو تفسير برأي فقد ضلّ عنه، ومن سلم له وفرّغ قلبه من كل فكرة سابقة حين يقرأه فإن الله يهديه سواء السبيل.

يقول العالمة الطبرسي قطنطش وهو يشرح الفرق بين التفسير بالرأي والتدبر في الذكر: (واعلم أن الخبر قد صح عن النبي ﷺ وعن الأئمة القائمين مقامه عليهم السلام أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح، والنص الصريح، وروت العامة أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: (من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ)، قالوا وكره جماعة من التابعين القول في القرآن بالرأي كسعير بن المسيب وعيادة السلماني ونافع وسالم بن عبد الله وغيرهم، والقول في ذلك أن الله سبحانه ندب إلى الاستنباط وأوضحت السبيل إليه ومدح أقواماً عليه فقال: ﴿لَعِلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَطِعُونَهُ مِنْهُمْ﴾، وذم آخرين على ترك تدبره والإضرار عن التفكير فيه فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْفَالُهَا﴾ وذكر إن القرآن منزّل بلسان العرب

قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وقال النبي ﷺ: (إذا جاءكم مني حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فاقبلوه وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط)، وبين أن الكتاب حجة ومعروض عليه وكيف يمكن العرض عليه وهو غير مفهوم المعنى؟! فهذا وأمثاله يدل على أن الخبر متروك الظاهر فيكون معناه إن صح أن من حمل القرآن على رأيه ولم يعمل بشواهد ألفاظه فأصاب الحق فقد أخطأ الدليل، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه)، وروي عن عبد الله بن عباس أنه قسم وجوه التفسير على أربعة أقسام:

١- تفسير لا يعذر أحد بجهالته.

٢- تفسير تعرفه العرب بكلامها.

٣- تفسير يعلمه العلماء.

٤- تفسير لا يعرفه إلا الله عز وجل.

فأما الذي لا يعذر أحد بجهالته فهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في القرآن وجمل دلائل التوحيد، وأما الذي تعرفه العرب بلسانها فهو حقائق اللغة وموضوع كلامهم، وأما الذي يعلمه العلماء فهو تأويل المتشابه وفروع الأحكام، وأما الذي لا يعلمه إلا الله فهو ما يجري مجرى الغيوب وقيام الساعة<sup>(٦)</sup>.

ويعتبر محل كلامنا من القسم الأول، أي إن الذي يترك التدبر في القرآن الكريم يكون مذموماً، وبالتالي لا يكون مستحقاً للهداية الإلهية فلا نور في القلب، ولا شريعة في الحياة.

إن عقل الإنسان يتبع إرادته، فلو أراد الإنسان أن يفهم وأن يتدبّر، لتحرك نحو أسباب الفهم ونحو أسباب التدبّر، ولفتح عينه وسمعه وقلبه، ولبحث عن وسائل المعرفة، أما الذي لا يريد أن يفهم، فإن عقله يُدنس في تراب الجهل، ويخبّت نوره إلى الأبد.

لهذا يقول السيوري: (إن المراد من التدبّر يعني: النظر والاستدلال بما ورد في الآية المباركة لإثبات أنها آيات الله سبحانه وتعالى، يعني الانتقال من الآية إلى ذي الآية، الانتقال بما في خلق السماوات والأرض والاختلاف الليل والنهر والإتقان والصناعة والعلم الموجود هنا، أن ننتقل إلى الله سبحانه، أن ننتقل من هذا الصنع العجيب والنظام الدقيق الموجود في عالم الطبيعة ونستدل بذلك على وجود الله سبحانه وتعالى، وإذا لم تقم بهذا ولم تتدبّر فذلك الويل).

س٦٢: ماذا يعني من قوله: إذا لم تقم بهذا ولم تتدبّر فذلك الويل؟

ج: يعني من الويل هو التوعّد على العذاب لمن لم يستدل بهذه الآيات الكونية على وجود الله، فإن كان الإنسان مستحقاً للويل حال تركه فعلًا مطلوبًا منه إنجازه، فهل يكون الفعل حينئذٍ واجباً أو ليس بواجب؟! من الواضح أنه واجب.

ونذكر مثالاً آخر للتوضيح: لو قال المولى لعبدة: ويل لك إن لم تأتي لي بالماء، فهذا الإنسان إذا لم يأتي بالماء وهو واجب عليه، لاستحق الويل ولاستحق العقاب من مولاه لأنه لم يلتزم بقرار مولاه وهو الإتيان بالماء، وهنا أيضاً - أي في محل بحثنا - النبي ﷺ يقول: (منْ لمْ يَتَدَبَّرْ هَذِهِ آيَةَ، وَفَسَرَ

الشارح التدبر بـأي معنى؟ طبعاً بالنظر والاستدلال لإثبات وجود الله، يعني مَنْ لم ينظر ولم يستدل بالآيات الطبيعية والكونية لإثبات وجود الله سيكون مستحقاً حينئذ للويل.

إذن يكون النظر والاستدلال لإثبات وجود الله تعالى، ولرفع الملامة والويل واجباً.

س ٦٤ : ما هو التطبيق لهذا البحث المتقدم لسيوري مع التوضيح؟

ج: قال السيوري:(رتب - أي النبي ﷺ - الذم على تقدير عدم تدبرها، أي على تقدير عدم تدبر هذه الآيات، وما هو المراد من التدبر؟ قال: أي عدم الاستدلال بما تضمنته الآية، وأي شيء تضمنته الآية؟ طبعاً عن ذكر الأجرام السماوية والأرضية بما فيها من آثار الصنْع والقدرة والعلم بذلك(كل هذه) الدالة على وجود صانعها، وقدرته - أي وقدرة هذا الصانع - وعلمه - أي وعلم هذا الصانع -، إذن فيكون النظر والاستدلال واجباً، لأنه لو لم يتدارر فإنه يستحق الويل، ومن الواضح أنه إذا كان مَنْ لم يتدارر يستحق الويل، إذن التدبر يكونُ واجباً وهو المطلوب).

س ٦٥ : من الاستفهامات التي تثار لدى المتدارر الوعي هذا السؤال:

وهو: كيف خلقت السموات والأرض وهي لا تزال تخلق وتتطور حسب خطة حكيمه وإرادة مطلقة ويد قوية؟

وما هذا الليل الذي يلف الكون بظلماته وسكونه؟

وما هذا النهار الرائع الصاخب؟

وَمَنْ يَسْلُخُ النَّهَارَ مِنَ اللَّيلِ، فَيُفَرِّقُ الْكَوْنَ فِي بَحْرٍ مِنَ الْهَدْوَءِ وَالظُّلَامِ؟

ج: لاشك ولا ريب بأن هذه الاستفهامات تمثل حقائق تشير عقول الذين ينفذون إلى لب الحياة، وما وراء قشورها من أنظمة وأهداف، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَّا يُلِيقُ الْأَلْبَابُ﴾.

إن هؤلاء أصحاب العقول النيرة، يعرفون ربهم في أول نظرة إلى الحياة، ولا يرون ظاهرة في الحياة، إلا ويدركون ربهم لأنهم يعبرون فوق جسر الظاهرة بسرعة، ويصلون إلى الحقيقة التي تقول إن الله هو خالق هذه الظاهرة ومدبرها الآن، والذي يطورها من حال لحال ومن عظمة لأخرى.

من هنا فإن المدف الأسمى لجميع المفكرين وال فلاسفة هو تفسير الظاهرة الكونية بنحو فلسفى وعلمى، وقد طرحت في هذا المجال تفسيرات ونظريات عديدة تبلغ خمساً هي:

١- نظرية التدبير والتقدير والخلق، أو ما تسمى بنظرية الإلهين.

٢- نظرية الخياليين، أو ما يعبر عنها بنظرية خيالية الكون.

٣- نظرية الصدفة.

٤- نظرية الخاصية، أو ما يعبر عنها بنظرية خاصية المادة.

٥- نظرية المادية الديالكتيكية.

س٦: ماذا يقصد من نظرية التدبير والتقدير والخلق؟

ج: هذه النظرية ترى أن العالم بmadته وصورته مخلوق لقوة عالمية قادرة، هي التي أوجده وأنهضته لهذه النواميس والقوانين، وأن تلك القوة وذلك الموجود العالم القادر هو الله سبحانه الذي خلق فسوى وقدر فهدي.

وهذا هو ما ظل يتباين الإلهيون في مختلف العصور والأزمنة.

**س٦٧: وماذا يقصد من نظرية الخيالين؟**

ج: يقصد من هذه النظرية أن العالم خيال في خيال، ووهم في وهم، فلا أصالة للكون ولا وجود له أبداً، أو أن الإنسان لا يقدر أن يصل إلى درك هذا العالم وواقعيته. وهذه هي النظرية التي يتباينا بها الخياليون الذين سوا خطأً بالمتاليين.

**س٦٨: وماذا يقصد من نظرية الصدفة؟**

ج: يرى أصحاب هذه النظرية أن المادة قديمة في وجودها، وأن صورها وأشكالها تحققت بالصدفة دون دخالة أي عقل وشعور.

**س٦٩: وماذا يقصد من نظرية الخاصية؟**

ج: يعتقد أرباب هذه النظرية أن النظام الكوني العام وليد خاصية المادة، وهذا يرجع في مصطلح القوم إلى المادة الميكانيكية.

**س٧٠: وماذا يقصد من نظرية المادة الديالكتيكية؟**

ج: يذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن النظام السائد في الكون جاء نتيجة التضاد الديالكتيكي الموجود في أجزاء الكون المحرّك نحو هذا النوع من النظام.

وهذه النظريات الثلاث الأخيرة تشتراك في الاعتقاد بقدم المادة وأزليتها، ولكنها تختلف في بيان تحقق الصور والأنظمة السائدة في الكون.

## س٧١: ماذا تعرف عن مظاهر النظام السائد في عالم الفضاء؟

ج: الحقيقة أن نظرة فاحصة في شتى أرجاء الكون و مجالاته وألحائه تكشف لنا عن مظاهر للنظام المتقن، والتصميم الدقيق، والمحاسبة والدقة، وهذا ما سنعرفه من خلال ما قدمته لنا العلوم في مختلف مجالات الفلك و عالم الأنجام والكواكب.

فعلم الفضاء عالم عجيب، فإلى أين يمتد بنجومه و مجراته العظيمة؟ مع كل ما اكتشفه إنسان اليوم، وما سيكتشفه في الغد، ستبقى الحيرة والتساؤل لا تفارقه أبداً، لأن الكون أعظم مما يتصوره الإنسان، والأسرار التي تحيط به أسرار لا نهاية لها.

ومهما طالت رحلة الإنسان في الكون، ومهما قطع من مسافات نائية في أعماقه، فلن يكون قد ابتعد كثيراً عن أرضه، وكأنه قطع بضعة أمتار عن شاطئِ محيط عظيم.

فعلم الفلك الحديث يقول: بأن مجرتنا تتتألف من عدد هائل من الأنجام والكواكب التي يبلغ حجم متوسطها حجم الشمس، ويقدر عدد نجومها بمائة ألف مليون نجم تقريباً.

وإن النجوم نفسها تشبه الشمس شبهأً كبيراً، وبعدها الشاسع وحده هو الذي يجعلها تبدو خافية وخفافحة النور.

وإن عدد كبير من هذه النجوم كواكب تدور حولها، وعدد كبير من هذه الكواكب يجب أن يكون على البعد الصحيح من نجمه بحيث تنشأ عليه أحوال كتلك التي نعرفها على الأرض.

وتقع ضمن هذه المجرة منظومتنا الشمسيّة التي تتكون من الشمس كمركز، ومن كواكب تسع تدور حولها ويدور حول كل واحد منها كوكب أو كوكبان أو أكثر إلى ١٠ كواكب، وقد لا يدور حول بعضها شيء مطلقاً. والكواكب التي تدور حول الشمس هي بالترتيب من الأقرب إلى الأبعد (طارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون بلوتو).

وما يلفت النظر في هذه المنظومة أمور:

أـ عظمة هذه الكواكب والأنجام، وعظمة الشمس نفسها.

بـ الفواصل الدقيقة والحركات المنتظمة.

وهذا يقتضي أن نتحدث عن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار.

#### س ٧٢: ما هو المراد من السماوات؟

ج: لكي نعرف مقصود القرآن الكريم من التعبير بالسماء والأرض لا بد لنا من دراسة الآيات التي تشير إلى ماهية السماء والأرض، فهل السماء يعني الجهة العليا والأرفع، أي يعني الفوق؟ أم هي يعني الموجود العالي والربيع كما يبدو من أصل اشتراق هذا اللفظ الذي هو السمو؟ الظاهر أن القرآن الكريم لم يستعمل لفظ السماء يعني الفوقية والجهة العليا، وقد تطلق السماء مجازاً أو تساحماً ويراد بها الجهة العليا أو الفوق، ولكن كلمة السماء ليست هي يعني الفوق لأن الفوق لا يجمع، والجهة العليا لا تتعدد، وما يتbaادر إلينا من الفوق لا يدل على ذات ما، بينما

نلاحظ أن القرآن الحكيم قد استعمل أولاً السماء كثيراً بصورة الجمع، ثانياً: قد ذكر السماء بعنوان أنها موجود حقيقى وذات واقعية، لا أنها جهة فحسب<sup>(٧)</sup>.

وبتعبير ثان: إن السماء هي: كل شيء علا شيئاً آخر فهو بالنسبة له سماء أو سقف، وكل شيء علنا في الكون هو بالنسبة لنا سقف أو سماء، فكلمة (سماء) وردت في القرآن بمعانٍ مختلفة، وكلها تشير إلى العلو، واقتراح الكلمة (سماء) مع (بناء) يوحي بوجود سقف يعلو البشر على ظهر هذه الأرض، بل إن القرآن صرخ بكلمة (سقف) في بيان حال السماء إذ قال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾<sup>(٨)</sup>.

ولعل هذا التعبير القرآني يشير إلى استغراب أولئك الذين يفهمون موقع الأرض في الفضاء فيتساءلون عن هذا السقف، عن مكانه وكيفيته، ولعل هذا التعبير يعيد - بادي الرأي - إلى الأذهان فرضية بطليموس التي تصور الكون على أنه طبقات من الأفلاك متراكمة بعضها فوق بعض مثل طبقات قشور البصل!! من هنا لا بد من توضيح لمفهوم السماء والبناء والسفوف في التعبيرات القرآنية.

ذكرنا إن سماء كل شيء أعلاه، وأحد معاني السماء (جو الأرض)، وهو المقصود في الآية الكريمة، وجو الأرض هو الطبقة الهوائية الكثيفة المحيطة بالكرة الأرضية، ويبلغ سماكتها عدة مئات من الكيلومترات. لو أمعنا النظر في الدور الحيوي الأساس الذي تؤديه هذه الطبقة الهوائية لفهمنا مدى استحكام هذا السقف وأهميته لصيانة البشر.

هذه الطبقة الهوائية مثل سقف شفاف يحيط بكرتنا الأرضية من كل جانب، وقدرة استحكامه تفوق قدرة أضخم السدود الفولاذية، على الرغم من أنه لا يمنع وصول أشعة الشمس الحيوية الحياتية إلى الأرض، لو لم يكن هذا السقف ل تعرضت الأرض دوماً إلى رشق الشهب والنيازك السماوية المتاثرة، ولما كان للبشر أمان ولا استقرار على ظهر هذا الكوكب وهذه الطبقة الهوائية التي يبلغ سمكها عدة مئات من الكيلومترات كما تذكر الكثير من الكتب إن سماك الجو المحيط بالأرض يبلغ مائة كيلومتر، ويبدو أن المقصود بهذا السمك هو الطبقة الجوية الكثيفة، لأن العلم الحديث أثبت أن الهواء موجود بشكل رقيق متبعاد الجزيئات على بعد مئات الكيلومترات، فهذه الطبقة تعمل على إبادة كل الصخور المتجهة إلى الكورة الأرضية، وقليل جداً من هذه الصخور تستطيع أن تخترق هذا الحاجز وتصل الأرض لتندر أهل الأرض دون أن تعكر صفو حياتهم.

من الشواهد الدالة على أن أحد معاني السماء هو (جو الأرض) حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يتحدث فيه إلى المفضل عن السماء فيقول: (فَكُّرْ فِي لَوْنِ السَّمَاءِ وَمَا فِيهِ مِنْ صَوَابِ التَّدْبِيرِ، فَإِنْ هَذَا اللَّوْنُ أَشَدُ الْأَلْوَانِ موافِقًا لِلْبَصَرِ وَتَقْوِيَةً<sup>(٩)</sup>).

ومن الواضح أن زرقة السماء ليست إلا لون الهواء الكثيف المحيط بالأرض، ولهذا فإن المقصود بالسماء في هذا الحديث هو جو الأرض نفسه. وأضيفت كلمة الجو إلى السماء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِ السَّمَاءِ﴾<sup>(١٠)</sup>، فكلمة (سماء) تشير إلى جهة عليا، ولها

مفهوم واسع ذو مصاديق مختلفة، ولذلك كان لها استعمالات عديدة - إضافةً لما تقدم - في القرآن الكريم:

- ١- أطلقت أحياناً على الجهة العليا المجاورة للأرض كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾<sup>(١)</sup>.
- ٢- وعنى بها القرآن تارة المنطقة بعيدة عن سطح الأرض: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾<sup>(١٢)</sup>.
- ٣- وأراد القرآن بالسماء في موضع آخر الکرات العليا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾<sup>(١٣)، (١٤)</sup>.

#### س ٧٢: ما هي عظمة السماوات؟

ج: إن عظمة السماوات تعتبر آية من آيات الله سبحانه لما فيها من تعبير عن قدرته القصوى التي لا حد لها.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾<sup>(١٥)</sup>. المراد بالنظر هنا هو النظر المقتن بالتفكير الذي يدعو صاحبه لمعرفة عظمة الخالق الذي خلق السماء الواسعة وما فيها من عجائب مذهلة وتناسقها وجمالها واستحكامها ونظمها ودقتها.

والمراد بجملة ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي لا انشقاق فيها، إما أن يكون بمعنى عدم وجود النقص والعيب والاضطراب كما ذهب إليه بعض المفسرين، أو أن يكون معناه عدم الانشقاق والانفطار في السماء المحيطة بأطراف الأرض وهي ما يعبر عنها بالغلاف الجوي للأرض أو ما يعبر

القرآن عنه بالسقف المحفوظ كما ورد ذلك في سورة الأنبياء ﷺ الآية (٣٢)، إذ توصد الطريق بوجه النيازك والسدم والشهب التي تهوي باستمرار نحو الأرض وبسرعة هائلة وقبل أن تصل إلى الأرض تستحيل إلى شعلة فرماد، كما أنها تحجب أشعتها الضارة، وإلا فإن السماء معناها الفضاء الواسع الذي تسبح فيه الأجرام الكروية المعروفة بالنجوم.

ويوجد هنا أيضاً احتمال ثالث وهو أن الجملة السابقة إشارة إلى نظرية وجود الأثير، وطبقاً لهذه النظرية فإن جميع عالم الوجود بما فيه الفوائل التي تقع ما بين النجوم مليء من مادة عديمة اللون والوزن تدعى بالأثير وهي تحمل أمواج النور وتنقلها من نقطة لأخرى، وطبقاً لهذه النظرية فإنه لا وجود لآية فرجة ولا فجوة ولا انشقاق في عالم الإيجاد والخلق وجميع الأجرام السماوية والكواكب السيارة توج في الأثير!

وبالطبع فإنه لا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة وإن كانت النظرية الثالثة التي تعتمد على فرضية الأثير لا يُعول عليها ولا يمكن الركون إليها، لأن موضوع الأثير ما يزال قيد الدرس ولم يثبت بصورة قطعية عند جميع العلماء للآن! <sup>(١٦)</sup>

س٤: ما هي النيازك والشهب كما جاءت في الجواب السابق؟

ج: يتم الجواب عن هذا السؤال من خلال البحث العلمي مصدرين له

بآية قرآنية كريمة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ نَّسَاءً نَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ <sup>(١٧)</sup>.

حتى القرن الثامن عشر رفضت بعض الجمعيات العلمية حقيقة سقوط قطع من السماء على الأرض، فأكاديمية العلوم في (باريس) ألقت في القمامة مجموعة كبيرة من النيازك كانت بين مقتنياتها، اعتقاداً من أصحابها بأن هذه النيازك ليست إلا حجارة مجموعة من الأرض، إلى أن جاء العالم (بيو-١٨٠٢) فاتبع أساليب علمية وتحقيقاً شخصية مطولة أكد بعدها أن هناك قطعاً تساقط فعلاً من السماء، فالأرض تتعرض لقصف مستمر بقطع مختلفة التركيبة والأحجام والأشكال مصدرها السماء، الصغير منها يحترق ويتفتت خلال احتراقه الغلاف الجوي للأرض فيصلها رماداً وغباراً، وهذه القطع الصغيرة تسمى بالشُّهب، وأما القطع الكبيرة التي تصل إلى سطح الأرض فتسمى بالنيازك التي يحدث بعضها تدميراً وحرائق هائلة، فبعض النيازك يزن عشرات الأطنان كالذى ضرب صحراء (الأريزونا) منذ أربعين ألف سنة تقريباً وترك في سطحها فجوة أي: حفرة بقطر ١٢٩٥ مترًا، وعمقها ١٤٧ مترًا، وقد أصبحت من المعالم السياحية في الولايات المتحدة الأمريكية<sup>(١٨)</sup>.

#### س٧٥: ما الهدف من وجود النجوم في السماء؟

ج: قد تسمع عن الكواكب التي يتخذها فئات من الناس معبوداً من دون الله، إما لما يرون من اعتقادهم أن ظهورها وغيابها يؤثّر في حياة البشر، أو لأنها هم بروعتها، فإن القرآن يوضح دورها في السماء فيقول:

**﴿إِنَّا زَيَّنَاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَافِك﴾**<sup>(١٩)</sup>، وهنا نكتة أحب الإشارة إليها وهي: إن الكواكب هنا بدل من الزينة، ويتحمل كونها عطف بيان، والزينة هنا اسم مصدر وليس مصدرأً، حيث جاء في الكتب الأدبية أينما

ووجدت نكرة بدل عن المعرفة فيجب مرافقتها بوصف، وفي حالة العكس فإن الأمر غير واجب.

والآن نرجع لحل بحثنا فنقول:

لو رفع أحدنا ببصره نحو السماء في إحدى اللياليظلمة، لتجسم في بصره منظر جميل يسحر الإنسان، وكان السماء تتحدث معنا بلسانها الصامت، لتكشف لنا عن أسرار الخلق، وأحياناً تكون شاعرة تنشد لنا أجمل القصائد الغزلية والعرفانية، وإغماضها وتواريها، ومن ثم إبراقها ولمعانها، يوضح أسرار العلاقة الموجودة بين العاشق والمشوق.

حقاً إن منظر النجوم في السماء رائع الجمال، ولا تمل أي عين من طول النظر إليه، بل إن النظر إليه يزيل التعب والهم من داخل الإنسان، وما يذكر أن أبناء المدن التي يغطيها دخان المصانع، لا يستمتعون بمشاهدة السماء وهي مرصعة بالكواكب كما يشاهدها الإنسان القروي.

ومن الجدير بالاهتمام قول الآية: ﴿إِنَّا زَيَّنَاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَافِكَ﴾ في حين كانت الفرضيات الشائعة في ذلك الوقت في أذهان العلماء والمفكرين هي أن السماء العليا هي التي تضم الكواكب - أي السماء الثامنة طبقاً لفرضيات بطليموس.-

وكما هو معروف فإن العلم الحديث دحض تلك الفرضيات، وعدم اتباع القرآن كما جاء في تلك الفرضيات النادرة والمشهورة في ذلك الزمان معجزة حية للقرآن الكريم كتاب الله.

والنقطة الأخرى التي تلفت النظر هي أن تواري نور الكواكب الجميل

وظهور بريقه مرة أخرى يعود -من وجهة نظر العلم الحديث- إلى وجود القشرة الهوائية حول الأرض، التي تعطي ألواناً للنجوم أيضاً، وهذا المعنى يتلاءم مع ما نصت عليه الآية الكريمة ﴿السَّمَاءُ الدُّنْيَا﴾، أما في خارج جو الأرض فإن النجوم تبدو معتمة وليس لها أي بريق، على عكس ما يشاهد داخل جو الأرض.. وقال تعالى: ﴿وَزَرَّيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾<sup>(٢٠)</sup>.

فإن هذه الآية الكريمة تدل على أنَّ جميع النجوم زينة للسماء الأولى، وتبدو في نظر الإنسان كالمصابيح المعلقة في سقف هذه السماء الزرقاء، وهي ليست للزينة وحسب، حيث تجذب بتلائئها الخاص المتعاقب قلوب عشاق أسرار الخلقة، وإنما هي في الليالي المعتمة تكون مصابيح للتائهين وأدلة لمن يسير في الطريق، تُعينهم على تعين اتجاه الحركة<sup>(٢١)</sup>.

إن نظرة متأنلة في ليلة مظلمة خالية من الغيوم إلى جو السماء مليء بالنجوم كاف لإثارة الانتباه فينا إلى تلك العوالم العظيمة، وخاصة طبيعة النظم الحاكمة عليها، والروعة المتناهية في جمالها ولطافتها وعظمتها، وسكنونها المفترن بالأسرار العجيبة، والهيبة التي تلقى بظلالها على جميع العوالم، مما يجعل الإنسان أمام عالم مليء بالمعرفة ونور الحق، ويدفعه باتجاه عالم عشق الباري عزَّ وجلَّ، والذي لا يمكن وصفه والتعبير عنه بأي لسان.

#### س ٧٦: ما هي النجوم الثابتة أو السيارة؟ وما الهدف من ذلك؟

ج: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهَتَّدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَلَّنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢٢)</sup>، تشير هذه الآية إلى نعمة أخرى من نعم الله على البشر، فجعل للنجوم موقع ثابتة، وذلك

للاستهدا بهَا في ليالي البر والبحر، وهذا الاهداء يتم ببركة ثباتها، وبأنها دليل على وجود ثبات في سنن الكون، بالرغم على ما في السماء من كواكب سيارة كدوران الشمس والقمر، فلاشك ولا ريب يتضح لأهل الفكر والفهم والإدراك أن للكون أنظمة بالغة الدقة.

ومنذ آلاف السنين والإنسان يعرف النجوم في السماء ونظمها، وعلى الرغم من تقدم البشر في هذا المضمار تقدماً كبيراً، فإنه ما يزال يتابع وضع النجوم قليلاً أو كثيراً، بحيث كانت له هذه النجوم خير وسيلة لمعرفة الاتجاه في الأسفار البرية والبحرية، وعلى الأخص في الخيطات الواسعة التي كانت تخلو من كل إمارة تشير إلى الاتجاه قبل اختراع الإسطرلاب.

إنَّ النجوم هي التي هدت ملايين البشر وأنقذتهم من الغرق وأوصلتهم إلى بر السلامَة. لو تطلعنا إلى النجوم عدة ليال متواتلة لانكشف لنا أنَّ مواضع النجوم في السماء متناسقة في كل مكان، وكأنها حبات لؤلؤ خيطة على قماش أسود، وإنَّ هذا القماش يسحب باستمرار من الشرق إلى الغرب، وكلها تتحرك معه وتدور حول محور الأرض، بغير أن تتغير الفواصل بينها، إنَّ الاستثناء الوحيد في هذا النظام هو عدد من الكواكب السيارة التي لها حركات مستقلة وخاصة، وعددتها ثمانية، خمسة منها تُرى بالعين المجردة وهي: (عطارد والزهرة وزحل والمريخ والمشتري)، وثلاثة لا تُرى إلا بالتلسكوب وهي: (أورانوس ونبتون وبلوتو)، بالإضافة إلى كوكب الأرض الذي يجعل المجموع تسعة.

ولعلَّ إنسان ما قبل التاريخ كان يعرف شيئاً عن الثوابت والسيارات

لأنه لم يكن هناك ما يمكن أن يجلب انتباذه أكثر من السماء المرصعة بالنجوم في ليلة ظلماء، فلا يستبعد أن يكون هو أيضاً قد أستخدم النجوم في الاستهداء ومعرفة الاتجاه.

ومن الجدير ذكره هنا وكما يستفاد من بعض روایات أهل البيت<sup>٨</sup> أنَّ هذه الآية تفسيراً آخر، وهو أنَّ المقصود بالنجوم القادة الإلهيين والمداة، إلى طريق السعادة أي الأئمة علیهم السلام الذين تهتدي بهم الناس في ظلام الحياة فينجون من الضياع، طبعاً وكما يقول المسفرون إن هذه التفاسير المعنوية لا تتنافي مع التفاسير الظاهرية، ومن الممكن أن تقصد الآية كلاً التفسيرين<sup>(٣٣)</sup>.

#### س ٧٧: ما هو المراد من بروج السماء؟

ج: قالوا في أصل معنى البروج: هو الظهور. وتطلق على القصور، وسميت بالقصور لأنها ظاهرة لعلوها من ناحية البناء، وجاء في مفردات الراغب: ثوبٌ مبرج صورت عليه بروج فاعتبر حسنة، وقيل تبرجت المرأة أي تشبهت به في إظهار الحasan، وعلى ذلك تكون بروج السماء هي الأجرام والمخراجات الضخمة الظاهرة في الآفاق، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتٌ  
الْبُرُوجُ﴾<sup>(٢٤)</sup>.

ويبدو أن المراد منها هو ما نشاهده من النجوم المتلائمة ليلاً في القبة السماوية، ولذا نقرأ فيما روى عن النبي الأكرم علیه السلام أنه حينما سُئل عن تفسير الآية قال: (الكواكب)<sup>(٢٥)</sup>.

يقول أحد الحكماء إن التأمل في النجوم علاج للهموم، لأننا نشعر

بضالة عالمنا وتفاهة همومنا بالنسبة لهذا الكون الفسيح، فنحن عشر البشر نعيش على سطح كوكب صغير يدور حول نجم الشمس، والشمس نجم متوسط من بلايين البلايين من النجوم التي توجد في بلايين المجرات في هذا الكون، وبهذا فإن الأرض وما عليها من حياة ما هي إلا قطرة في محيط لا نهائي.

وإذا نظرنا إلى السماء في المناطق الصافية والليلي المظلمة التي يختفي فيها نور القمر فإننا سوف نشاهد منظر النجوم وهي ترقص السماء فتتأمل في جمالها ونظمها وتجمعاتها وألوانها، فهذه مثلاً نجمة فريدة تتلألأ هناك لأنها عين جميلة تعبر عن الخبرة والوفاء، وهاتان النجمتان المنفردتان في ركن آخر من السماء وقد هربتا من الزحام بعيداً عن جمهرة النجوم، وهذه المجموعات النجمية التي نسميها البروج تجتمع فيها النجوم كأنها في حلقة سر في مهرجان السماء وتمثل بروجاً مختلفاً الأشكال تزين السماء في الفصول المختلفة وصدق تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾<sup>(٢٦)</sup>.

ولو تأملت القبة السماوية طويلاً لوجدت النجوم كلها تفعل كما تفعل الشمس، فهي تشرق وتغرب كل يوم وكأن قبة السماء تدور فوق رأسك من شرق إلى غرب! وإن النجوم التي تغرب عنك تشرق على قوم آخرين من الكورة الأرضية، ولكن الحقيقة أن القبة السماوية بنجومها لا تدور من شرق إلى غرب، ولكنك أنت نفسك تدور بك الأرض مرة كل يوم من الغرب إلى الشرق فتبعدوا لك كل أجرام السماء وكأنها تتحرك ظاهرياً في

الاتجاه المضاد تماماً، كتحرك الشجر عندما تنظر إليه من شباك القطار، وهناك شيء آخر - قارئي الكريم - وهو تغير منظر توزيع النجوم في السماء ليلاً باستمرار على مر الليالي أثناء السنة، وذلك عند النظر إليها من أي مكان على الأرض، والحقيقة إن تغير أشكال البروج لا يعبر عن تحركها وإنما يرجع إلى تحرك الأرض بدورانها حول الشمس مرة كل عام، وبهذا فإننا ندور معها ونستعرض في السماء بروجاً مختلفاً على مدار السنة تماماً كما يستعرض لاعب السيرك نماذج مختلفة من الناس أثناء دورانه على محيط الملعب، وصدق تعالى بقوله: ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتٌ الْبُرُوجُ﴾.

ولقد تمكن القدماء من رؤية حوالي ٦٠٠٠ نجم بالعين المجردة بينما تمكنت الوسائل الحديثة من رصد بلايين البلايين من النجوم، ولكن القدماء تصوروا أشكالاً معينة لتجمعات آلاف النجوم التي رأوها بالعين وأعطوا لهذه الأشكال التي تمثل البروج أسماء تتمشى مع مهنة الرعي والزراعة التي كانت سائدة قديماً وقسموها إلى اثني عشر برجاً بعده عدد شهور السنة تبدأ بظهور برج الحمل في ٢١ مارس وبعد شهر يأتي برج الثور، وهكذا كل شهر برج بالترتيب التالي:

(الحمل، الثور، التوأمان، الجوزاء، السرطان، الأسد، العذراء، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت).

وهذه الأسماء يجمعها قول الشاعر:

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان

ورمحت عقرب بقوس لجدي نزح الدلو بركة الحيتان

س ٧٨ : كما أنه لهذه البروج أسماء، فكيف يمكننا أن نميز مجموعات نجمية أو ما يسمى بالكواكب ذات أشكال مختلفة وأسماء متعددة على مر الفصول الأربعة؟

ج: نستطيع تمييز ذلك من خلال كل فصل كالتالي:  
ففي الربع: مجموعة الدب والأسد والغراب وغيرها.  
وفي الصيف: مجموعة الدجاجة والعقرب والمثلث الصيفي والقوس والجاثي وغيرها.

وفي الخريف: مجموعة مربع الفرس الأعظم الذي تنتهي نجومه إلى كواكب المرأة المسلسلة وذوات الكراسي والحمل.  
وفي الشتاء: مجموعة الجبار وغيرها.

هذا بالإضافة إلى المجموعة القطبية التي تظهر في جميع الفصول وتظهر فيها كواكب ذات الكرسي والدب الأكبر والدب الأصغر والتنين وذلك في منطقة القطب الشمالي.

س ٧٩ : كيف نواجه المنكريين للنعم الإلهية العظمى من خلال منظار حسي؟  
ج: يمكننا مجابهتهم بأمر بسيط يستدعي الانفاس إليه دون صعوبة أو تكلف وهو أن نقول لهم: انظروا إلى السماء لحظةً وفكروا في الدعوة الإلهية حيث يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُروجٍ﴾<sup>(٢٧)</sup>.

ومراد بالنظر هنا هو النظر المترن بالتفكير الذي يدعو صاحبه لمعرفة عظمة الخالق الذي خلق السماء الواسعة وما فيها من عجائب مذهلة وتناسقها وجمالها واستحكامها ونظمها ودققتها، فها هو القرآن ينادي بكل وضوح، يا أيها الضالون في وادي الغفلة ألا تتفكرون تفكراً يصحبه التأمل والدراسة؟! ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾<sup>(٢٨)</sup>، نعم إلى السماء التي حيرت العقول بعظمتها وعجائبها وما فيها من نجوم وما لها من بهاء وروعه، السماء التي يتصغر وجود الإنسان أمامها ليعد لا شيء بالنسبة لها، السماء التي لها من دقة التنظيم والحساب الدقيق ما بهر فيه عقول العلماء المتخصصين. ألا ينبغي للإنسان أن يتذكر في أمر مدبّر هذا الخلق، وما الأهداف الموجودة من خلقه؟! فكيف أصبحت تلك الكواكب في مساراتها المحددة؟! وما هو سر استقرارها في أماكنها وبكل هذه الدقة؟! ولم لم يتغير محور حركتها بالرغم من مرور ملايين السنين عليها؟!!

ومع تطور الاكتشافات العلمية الحديثة، نرى أن عالم السماء وما يحويه يزداد عظمةً وجلاً بدرجات ملموسة نسبة إلى ما كان عليه قبلاً، مع كل هذا وذاك، ألا يكون أمر خلق السماء مدعاه للتأمل والتفكير، والخوض في والتسليم لربوبية الخالق الواحد الأوحد؟!<sup>(٢٩)</sup>.

ولا شك ولا ريب أن السماء تعتبر من أهم الهبات التي منحها الله سبحانه، والسماء سواءً كانت تعنى جهة العلو أو الكواكب السماوية أو جو الأرض -والذي يعني الطبقة العظيمة من الهواء والتي تحيط بالأرض كدرع يقيها من الأشعة الضارة والصخور السماوية وحرارة الشمس،

وكذلك من الرطوبة الناتجة من مياه البحر لت تكون الغيوم وتنزل الأمطار-  
إن كل واحدة من هذه المعاني هبة عظيمة ونعمه لا مثيل لها، وبدونها  
تستحيل الحياة أو تصبح ناقصة.

نعم إن النور الذي ينحنا الدفء والحرارة والمداية والحياة والحركة يأتينا  
من السماء وكذلك الأمطار، والوحي أيضاً من هنا فإن للسماء في القرآن  
الكريم مفهوماً مادياً ومعنوياً.

وإذا تجاوزنا كل هذه الأمور، فإن للسماء المرفوعة آية عظيمة من آيات  
الله، وهي أفضل وسيلة لمعرفة الله سبحانه وذلك عندما يفكر أولو الألباب  
بدون تعقيد، ﴿رَبُّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بِأَطْلَأ﴾<sup>(٣٠)، (٣١)</sup>.

إلى هنا نختتم حديثنا المختصر وال سريع حول السماء وبعض عجائب  
خلقها، ونحو البحث الآن للتحدث عن أحد كواكبها ألا وهو كوكب  
الأرض، فهيا -عزيزي القارئ- لنعرف بعض أسرار هذا الكوكب الذي  
نعيش عليه بقدر طاقتنا المتواضعة، ولنعرف ما تم اكتشافه من قبل العلماء  
الجيولوجيين عنه حتى هذا التاريخ، فإلى المعلومات الهامة المتوفرة التي تتبع  
لقارئي الكريم أن يزيد في معلوماته وبحوثه حول هذا الموضوع.

#### س٨: متى كان منشأ الأرض؟

ج: نهد للجواب عن هذا السؤال من خلال القرآن الكريم حتى يتجلّى  
لنا ما هو المراد من نظرية الانفجار الكبير، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الذِّينَ كَفَرُوا  
أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَّنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلُّ شَيْءٍ حَيٌّ  
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٣٢)، (٣٣)</sup>.

لقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة فيما هو المراد من الرتق والفتق المذكورين هنا في شأن السماوات والأرض، ويبدو أن الأقرب من بينها ثلاثة تفاسير، وهي - كما سنقول - يمكن أن تجمع في مفهوم الآية<sup>(٣٤)</sup>.

١- إن رتق السماء والأرض إشارة إلى بداية الخلق، ونقصد منه هو حدوث الانفجار الكبير، إذ يرى أكثريّة علماء الكون الّيوم على أن السماوات والأرض كانتا في البدء أي منذ ستة عشر مليار سنة تقريباً كتلة بدائيّة واحدة هائلة الحرارة والضغط، انفجرت انفجاراً هائلاً فتَّتَ أجزاءها وشتَّتها ولا يزال يباعد بينها حتى الّيوم، ومع مرور مليارات السنين بردت تلك الأجزاء فتألّفت منها الغيوم الكونيّة أو السُّدُم، حيث ولدت لاحقاً النجوم والكواكب، هذا بصورة مختصرة ما جاءت به نظرية الانفجار التي قال بها العالم (جورج غاموف)، وهو عالمُ أمريكي من أصل روسي وكان قوله في سنة (١٩٤٠ م) أي قالها هذا العالم الكبير في النصف الأول من القرن العشرين، وفي عام (١٩٦٤) اكتشف العالمان (بانزيساس) و(ويلسون) موجات راديو منبعثة من جميع أرجاء الكون لها نفس الميزات الفيزيائية في أي مكان سُجِّلت فيه، فأسيئت بالنور المتحجر أو النور الأحفوري، وهو النور الذي من الأذمنة السحيقة ومن بقايا الانفجار العظيم الذي حصل في الثاني التي تلت نشأة الكون، وهذا الاكتشاف للنور الأحفوري مع اكتشاف توسيع الكون في سنة (١٩٢٩ م) شكلاً حجر الزاوية في البناء العلمي لنظرية الانفجار الكبير، وفي سنة (١٩٨٦ م) أرسلت المحطات الفضائية التي أطلقها الاتحاد السوفييتي معلومات تؤيد نظرية الانفجار الهائل وتوسيع الكون الذي

نتج عنه.

واليوم يُجمع أكثر علماء الفلك على القول إن نظرية الانفجار الكبير لم تعد نظرية بل هي حقيقة علمية، أما الأقلية التي عارضتها سابقاً فهي مجموعة من العلماء الماديين في معتقداتهم، ربما لأن الإقرار علمياً بحقيقة بدء الكون وتوسيعه تعارض مع معتقداتهم القائلة بأزلية المادة وقدم العالم، فعندما يثبت العلم أن للكون بداية فذلك يعني أن له نهاية وأنه مخلوق وليس أزلياً كما ظن الماديون.

أما في القرآن الكريم فالآية التي تقول إن السماوات والأرض كانتا في البدء كتلة واحدة فواضحة لا تتطلب إلا بعض التعليق اللغوي على معنى رتق وفتق، فكلمة رتق تعني ضمّ وجمع، وكلمة فتق تعني فصل، أي إن السماوات والأرض كانتا مجموعتين ففصلهما المولى.

فلاحظ هنا البلاغة العلمية الإعجازية في كلمتي رتق وفتق، فكل رتق قابل للفتق، وكل فتق قابل للرتق، والسماء والأرض ستعودان كما كانتا عند قيام الساعة، كما أنبأنا الترتيل وكما يفترض علماء الكون اليوم<sup>(٣٥)</sup>.

من هنا فقد نشأت الأرض منذ أربعة مليارات سنة ونصف تقريباً في غيمةٍ كونيةٍ جزئية انفصلت عن الكتلة البدائية ثم تحولت لاحقاً إلى مجرة سميت بال مجرة اللبنية أو درب اللبانة التي يتبع لها نظامنا الشمسي، والتي تحتوي على مئة مليار نجم وكوكب، منها الشمس والأرض وبقية الكواكب، علماً أنه من الكتلة البدائية تكونت لاحقاً مليارات الجراث التي تحتوي الواحدة منها على عشرات الملايين وحتى آلاف المليارات من النجوم

والكواكب.

أما عن كيفية تكون الأرض فتشير الدراسات الجيولوجية - أي علوم الأرض أو علم تكوين طبقات الأرض وعلم الغلاف الجوي والأحوال الجوية، وعلوم المياه والبيئة الأرضية - إلى أنها - أي الأرض - نشأت من أجرام سماوية صغيرة سُموها بالكويكبات، تجاذبت وتصادمت ثم اجتمعت بفعل قوة الجاذبية التي تربط بين الأشياء الكبيرة الحجم والثقل، أما أصل الكويكبات فيرجع إلى الكتلة البدائية الأولى التي نشأ منها الكون، وما الفجوات العديدة المنتشرة حتى اليوم على سطح الكوكبة الأرضية، وما النيران والحمم المشتعلة في باطنها إلا من الدلائل العلمية التي تؤيد هذه النظرية العلمية في تكون الأرض.

٢- إن المراد من الرتق هو كون مواد العالم متحدة، بحيث تداخلت فيما بينها وكانت تبدو وكأنها مادة واحدة، إلا أنها انفصلت عن بعضها بمرور الزمان، فأوْجِدَت تركيبات جديدة، وظهرت أنواع مختلفة من النباتات والحيوانات وال موجودات الأخرى في السماء والأرض، موجودات كل منها نظام خاص وآثار وخصوصيات تختص بها، وكل منها دلالة ومثل من عظمة الله، وعلمه وقدرته غير المتناهية<sup>(٣٦)</sup>.

٣- إن المراد من رتق السماء هو أنها لم تكن تمطر في البداية، والمراد من رتق الأرض أنها لم تكن تنبت النباتات في ذلك الزمان، إلا أن الله سبحانه فتق الاثنين، فأنزل من السماء المطر، وأخرج من الأرض أنواع النباتات، والروايات المتعددة الواردة عن طرق أهل البيت ع تشير إلى المعنى

الأخير، وبعضها يشير إلى التفسير الأول<sup>(٣٧)</sup>.

لاشك أن التفسير الأخير شيء يمكن رؤيته بالعين، وكيف أن المطر ينزل من السماء، وكيف تنفق الأرض وتنمو النباتات، وهو يناسب تماماً قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وكذلك ينسجم قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾، إلا أن التفسيرين الأول والثاني أيضاً لا يخالفان المعنى الواسع لهذه الآية، لأن الرؤية تأتي أحياناً بمعنى العلم، صحيح أن هذا العلم والوعي ليس للجميع، بل إن العلماء وحدهم الذين يستطيعون أن يكتسبوا العلوم حول ماضي الأرض والسماء، واتصالهما ثم انفصالهما، إلا أننا نعلم أن القرآن ليس كتاباً مختصاً بعصر وزمان معين، بل هو مرشد ودليل للبشر في كل القرون والأعصار.

من هذا يظهر أن له محتوى عميق يستفيد منه كل قوم وفي كل زمان، ولهذا نعتقد أنه لا مانع من أن يكون للآلية التفاسير الثلاثة، فكل في محله كامل وصحيح، وكما يقال: إن استعمال لفظ واحد في أكثر من معنى لا مانع منه فحسب، بل قد يكون أحياناً دليلاً على كمال الفصاحة، وإن ما نقرؤه في الروايات من أن للقرآن بطوناً مختلفاً يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى<sup>(٣٨)</sup>.

بعد هذا الاستعراض الموجز لوجود الكرة الأرضية، ندعو القارئ الكريم لرحلة قرآنية من خلال الآيات العظيمة التي تأخذ بالأنظار الوعائية وتشد الانتباه إلى ظواهر أرضية مختلفة أكثرها يحدث يومياً وتري في كل لحظة، فقليل منا من يغيرها اهتماماً لتكرار حدوثها ولتعودنا على رؤيتها،

والظاهر الباطن ينبهنا إلى هذه الظواهر ويدركنا بأنها لم توجد بمحض الصدفة أو بدون سبب أو هدف بل وجدت بتقدير دقيق من العزيز الحكيم. تكوين الأرض ودورانها حول نفسها، تتابع الليل والنهار والنور والظلم وضرورة وجود كلية ما لواصلة الحياة، خلق الجبال والحكمة من وراء خلقها وخلق البحار وما تلا ذلك من دورة الماء وتكون السحاب ودور الرياح في تسخير السحاب ثم سقوط الأمطار وجريان الأنهار وما ينبع عن ذلك من توافر عناصر الحياة للإنسان والنبات والحيوان، اختلاف الفصول وما يتبعه من تباين في أنواع النبات والزهور وتطور في أشكال الحيوان والطيور، ونرى الأسماك والطيور تقطع آلاف الأميال لتضع بيضها وتربى أفراخها في بيئه جديدة وجو مختلف عن ذلك الذي ترعرعت فيه ثم تعود معها إلى البيئة الأولى مرة أخرى.

إنها آيات يكشف العلم عنها كل يوم جديد، وكل مرة نقرأ عن هذه الاكتشافات من عادات الطيور وطبعات الحشرات إلى خواص الأسماك وغرائز الحيوانات يعترينا إعجاب وذهول بتكمال هذا الخلق وذهول لهذه الدقة التي يسير عليها والتي تبدو من أول وهلة وكأنها شيء طبيعي أو كأنها نتيجة صدفة محضة، ولكن الإيمان والبحث النزيه بدون إجحاف أو اتباع للهوى أو حكم سابق، وسرعان ما يحوان هذا الانطباع الزائف بأن الصدفة هي ألم الكون، وإذا بالمعرفة الجديدة وبالتفاصيل العلمية يكشفان الستار عن العوامل التي تقوم عليها هذه الظواهر فتبعد الشكوك وتضعف أصوات المدعين بأن خلق الكون كله كان مجرد صدفة ولزيادة اليقين في قلوب كل من

في قلبه بصيص من إيمان بأن الذي وراء ذلك الخلق والإبداع لا بد وأن يكون عليماً قديراً وليس بأي حال صدفة عشواء.

والقرآن يخبرنا بهذه الحقائق والظواهر بلغته وطريقته الخاصة ومن زوايا جديدة تختلف عن مفهوماتنا العادية لهذه الظواهر وعما في الكتب والمقالات العلمية، فعند قراءتنا لها في القرآن نكاد نلمس من ألفاظها ومن تعبيراتها و معانيها كيفية مثل هذه الظواهر، إنها وصف الخالق السميع البصير لخلوقاته وليس بوجهة نظر آدمية أو وصف مخلوق لمخلوق آخر.

من هنا سوف نتعرض لهذه المسائل من خلال فصول وكل فصل منها يعالج ظاهرة معينة وينصب على تفسير آية أو عدة آيات تركز أنظارنا وتدعونا للتفكير في هذه الظواهر<sup>(٣٩)</sup>.

## المواضيع:

(١) للتتوسيع انظر تفسير الآية ١٦٤ من سورة البقرة تفسير الأمثل.

(٢) آل عمران: ١٩١.

(٣) تفسير الأمثل بتصرف ج ٣ ص ٤٤.

(٤) محمد بن عبد الله: ٢٤.

(٥) المائدة: ١٦.

(٦) نقلأً من تفسير من هدى القرآن ومن مجمع البيان.

(٧) معارف القرآن للمصباح ج ٢ ص ١٣.

(٨) الأنبياء: ٣٢.

(٩) بحار الأنوار: الطبعة الجديدة ج ٣ ص ١١١.

(١٠) النحل: ٧٩.

(١١) إبراهيم: ٢٤.

(١٢) ق: ٩.

- . (١٣) فصلت: ١١.
- . (١٤) تفسير الأمثل ج ١ وج ١٠.
- . (١٥) ق: ٦.
- . (١٦) تفسير الأمثل ج ١٧ ص ١٦.
- . (١٧) سبأ: ٩.
- . (١٨) من علم الفلك القرآني ص ٦٧.
- . (١٩) الصافات: ٦.
- . (٢٠) فصلت: ١٢.
- . (٢١) تفسير الأمثل ج ١٤ ص ٢٥٩ وج ١٥ ص ٣٣٥.
- . (٢٢) الأنعام: ٩٧.
- . (٢٣) تفسير الأمثل ج ٤ ص ٣٦٨ بتصرف.
- . (٢٤) البروج: ١.
- . (٢٥) الدر المثور: ٦ / ٣٣١.
- . (٢٦) الحج: ١٦.
- . (٢٧) ق: ٦.
- . (٢٨) تفسير الأمثل ج ١٧ ص ١٦.
- . (٢٩) الغاشية: ١٨.
- . (٣٠) تفسير الأمثل بتصرف ج ٢٠ ص ١٤٨.
- . (٣١) آل عمران: ١٩١.
- . (٣٢) تفسير الأمثل ج ١٧ ص ٣٤٥ بتصرف.
- . (٣٣) الأبياء: ٣٠.
- . (٣٤) الفخر الرازي في التفسير الكبير، وبعض المفسرين الآخرين.
- . (٣٥) تفسير الأمثل بتصرف ومن علم الفلك القرآني.
- . (٣٦) تفسير الميزان ذيل الآية.
- . (٣٧) يُراجع تفسير الصافي ونور الثقلين ذيل الآية مورد البحث.
- . (٣٨) تفسير الأمثل بتصرف ج ١٠ ص ١٣٨.
- . (٣٩) نفلاً عن آيات قرآنية في مشكاة العلم بتصرف ص ١٦٦.

# بِحَرُورِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُواجهَةِ الْفَرَقِ الْمُنَارَفَةِ

الغلاة والمرجئة مثلاً

محمد باقر الشیخ

مقدمة:

تتوالى الدهور والأزمان وتتحرك خلامها إرادات الإنسان محركةً معها عجلة التطور على أصعدةٍ مختلفةٍ، ينشغل هذا الإنسان ويدخل في خضم هذه التطورات فيصل بعضه لمستوى النسيان وأخر في حالةٍ وسطيةٍ، وهكذا تتفاوت شؤونه وتختلف مستويات إدراكه واهتماماته، وفي خضم هذه الانشغالات تشتعل في أفقه هذا المخلوق نار الفطرة وتتأجج كلما شهد يوماً بعد يوم آيات نفسه وآفاقه، وكلما تجلت هذه الآيات ازداد إلحاح مصدر سعادته بذبه إليه وتنبيهه عن غفلته، فتتفجر من وسط تلك النيران أعينٌ متفاوتةٌ - شدةً وضعفاً - تحاول بقدر استطاعتها إخبار لهيب:

من أين؟

في أين؟

إلى أين؟

فترى ذلك المتبخر خارجياً بما وصل إليه من عمران يُشرق تارةً و يُغرب أخرى ساعياً للقبض ولو على قشةٍ في بحر تلك التساؤلات، فيغرق من يغرق وينجو من ينجو، وتسير سفينته الحق في تلك البحار ضاربةً في طول مسیرها حبل النجاة من الحق إلى الخلق رافعةً أعلام الأمان لمن ركبها متخطيةً

بشفقةٍ وحزنٍ من تركها.

نعم؛ هكذا هي العقيدة في فطرة الإنسان نارٌ موقدةٌ تشعل اخضرار حب الكمال في الإنسان، فإما أن يسعفها بأن يطفئها بأبجر الحقيقة فتزداد تألقاً ونضارةً وإما أن يتركها لتلك النيران تلتهمها فتركتها خاويةً على عروشها، فيتبيه في متاهاتها المظلمة ويكون من المنسيين.

نعم؛ هي الحقيقة ضالة الإنسان أينما ذهب، ومصب اهتماماته، ولما لهذا الأمر من أهميةٍ خاصةٍ سعى قادة سفينة النجاة للذود عن الحياد الصافيه للحقيقة، وسعوا بما أوتوا من قوةٍ مخاربة كل من أراد السوء بها لعرفتهم بأهمية سلامه هذا الأمر في كيان الإنسان ليستطيع به تشخيص بعضٍ من وظيفته الملقة عليه من الحق تعالى، ويكن اختزال أهمية العقيدة للإنسان

في أمور يتضح من خلالها كيف أن العقيدة تتصل بتصميم الحياة هي:

١- فهم الحياة: من أين؟ في أين؟ إلى أين؟ أسئلة لا يمكن للإنسان أن يتغاضى عنها أو يمر عليها من دون اكتراطٍ، خصوصاً وأنه يرى أن لكل ظاهرةٍ حياتيةٍ - حقيرةٍ أو خطيرةٍ - سبباً وأن لكل أمرٍ غايةٍ ومتنهىً، فكيف بهذا الكون الرحيب - ككل - وما فيه، إن دراسة العقيدة تساعد الإنسان على فهم الحياة ودرك هدفها ومصيرها ورفع حجاب الحيرة عنه.

٢- طرد القلق: المتطلع في تاريخ الإنسانية يلاحظ بوضوح ظاهرة الأنبياء عليه السلام، فهناك مجموعةٌ من الناس خرجت لا لشيءٍ إلا إخراج الناس من الظلمات إلى النور، خبرين بأن هناك واجباتٍ وتكاليف وثوابٍ وعقابٍ وحياةٍ أخرى.. الخ، وقد عرفت هذه الفتنة من الناس بصدقها وأمانتها،

أفلا يحتمل هذا الإنسان صدق دعوى هؤلاء فتُورق هذه الاحتمالات سعادته و استقراره خصوصاً مع قوة محتملها؟ ولا نجاة من هذا الأرق إلا بالعقيدة فإنها دافعةٌ للخوف الحاصل للإنسان من الاختلاف، ودفع الخوف واجب لأنَّه ألمٌ نفسيٌ يمكن دفعه، فيحكم العقل بوجوب دفعه، فيجب دفعه<sup>(١)</sup>.

**٣- دعامة الأخلاق:** الميل للخير وكراهة الشر أمران مغروسان في جبلي البشر، و لكن هذه البذور لا تنمو إلا في ظل رعايةٍ خاصةٍ، خصوصاً مع معرفتنا بأنَّ الإنسان كتلةٌ هائلةٌ من الغرائز لا تعرف الحدود، و مجموعةٌ من الشهوات التي إنْ تُركَتْ من دون كبحٍ جماحٍ جرّ هذا الإنسان على نفسه و مجتمعه الفساد بسبب تضارب المصالح والشهوات، و لا حل لهذا التعارض إلا العقيدة التي تنمو فيها بذور حبِّ الخير و بغضِّ الشر على أساسٍ إلهيٍ لا مصلحيٍ.

هذه الأمور وغيرها الكثير تعطي تصوراً عاماً بأهمية العقيدة في حياة الإنسان، و لأهميتها سعى الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لنشر العقيدة الصحيحة بين الناس، وهذا البحث في صدد عرضٍ لسيرة أحد هؤلاء العظام و كيفية مواجهته التيارات الفكرية في عصره، و استخلاص الأمور التي واجهها بهم، ألا وهو الإمام الصادق عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، سادس أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً، و سيق الكلام في محاور هي:

١- تعريفُ بالفرق الكلامية في عصره (المُرجئة و الغلاة).

٢- مواجهته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لهذه الفرق.

٣- أبرز الأمور التي واجه بها الإمام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هذه الفرق.

## ١- الفرق الكلامية في عصره عليهما السلام :

### أ- المرجئة:

- **تسميتهم**: وهي مأخذة من الإرجاء بمعنى التأثير، وقد قيل في تسميتهم إنهم يقدمون الإيمان ويؤخرون -يرجؤون- العمل، فالإيمان عندهم عبارة عن مجرد الإقرار بالقول وإن لم يكن مصاحباً للعمل، فأخذوا منه جانب القول وأخرموا جانب العمل، ولذا كان شعارهم (لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة).

- **زمن ظهورهم**: يbedo من فكرة الإرجاء بأنها كانت ردة فعل للموقف المتطرف الذي وقفه الخوارج من مرتكبي الكبيرة، وعلى هذا يتضح أن ظهورها كان في النصف الأول من القرن الأول للهجرة<sup>(٢)</sup>. وقيل أيضاً بأن ظهورها كفكرة لا كمذهب كان في عهد عثمان عندما وقف قسم من المسلمين موقفاً المحايدين بينه وبين الثائرين عليه<sup>(٣)</sup>.

- **عقيدتهم**: المعروف بين المسلمين أن مرتكب الكبيرة مؤمنٌ فاسقٌ، إلا أنه شدت بعض الفرق في ذلك فصارت بينهم ثلاث فرق، فقيل<sup>(٤)</sup> بتكفير مرتكب الكبيرة وخلوده في النار، بل أكثر من ذلك، فقد ذهب بعضهم إلى تكفير مرتكب الذنب مطلقاً حتى لو كان من الصغار، وقيل<sup>(٥)</sup> بعدم شرطية العمل في حقيقة الإيمان وإن العاصي مؤمنٌ وإن ترك الصلاة والصوم، فهاتين على طرف نقيض، وقيل<sup>(٦)</sup> بأن مرتكب الكبيرة عندهم لا مؤمنٌ ولا

فاسقٌ بل هو في منزلةٍ بين منزلتين، وزعمت هذه الأخيرة انتهاج الوسطية، إلا أن المشهور بتقييده الإيمان بالفسق خالف المرجئة وبوصفه بالإيمان خالف الخوارج والمعزلة.

والمتحصل أن المرجئة رتبوا على هذا أموراً:

١- إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأن أمر التصديق دائِرٌ بين الوجود والعدم، ومثله تفسير الإيمان بالإقرار باللسان، فهو أيضاً كذلك، وليس العمل داخلاً في حقيقته حتى يقال إن العمل يكثر ويقل.

٢- إن مرتكب الكبيرة مؤمنٌ حقيقةً لكتابية التصديق القلبي أو الإقرار باللسان في الاتصاف بالإيمان.

٣- إن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار وإن لم يتبرأ ولا يحكم عليه بالوعيد والعذاب قطعاً لاحتمال شمول عفو الله تعالى له<sup>(٧)</sup>.

- خطر عقيدتهم: تكمن خطورة عقيدة المرجئة بأنها تشكل في حقيقتها إجازةً مفتوحةً للمسلمين وأهل الجحود بل للمجتمع ككل للخلاعة والانحلال الأخلاقي وترك القيم، وذلك كله تحت إطار وحجة كفاية اتصاف الإنسان بالإيمان من غير حاجةٍ بعد ذلك لشيءٍ من العمل، فلا ينفعه صومه، صلاته، زكاته، ... الخ، ولا يضره زناه، شربه للخمر، ... الخ، وهذه الأفكار كما هو واضحٌ تقطر كفراً وضلالاً **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾**<sup>(٨)</sup>. ولذا تنبأ الأنبياء<sup>عليهم السلام</sup> إلى خطر هذه العقيدة المنحرفة وBADRوا إلى توعية الناس

بحظرها كما سيأتي، خصوصاً وأنها انتشرت بشكلٍ كبيرٍ بترويجٍ من حكام بني أمية، إذ وجدوا فيها ضالتهم المنشودة لمبرر سلوكهم وتطبيق مشروعهم الهدف لهدم الإسلام وتقويضه، وفيما يلي بعض النصوص التي تبين ذلك، (وأما المرجئة فكانوا عوناً و سندًا لحكم معاوية، جاءت آراؤهم ومعتقداتهم تبريراً لخلافته وإنقاضاً للمسلمين بوجوب طاعته.. )<sup>(٩)</sup>، (وكان موقف المرجئة السابق من معاوية عندما انتهى الصراع السياسي بغلبته في إسناد حكمه وتجنيد الطاقات لتبرير خلافته وإقناع المسلمين بطاعته الأثر الفعال في استمرار المرجئة، إذ أن الأمويين بطشوا بكلمة الفرق الإسلامية باستثناء المرجئة، وعاش شيوخهم مرفهين برعية بني أمية في الشام والبصرة، لذلك كانت الفرصة أمامهم كبيرة لنشر مذهبهم بين أهلها)<sup>(١٠)</sup>. (نشأت المرجئة بمناسبة الحملات التي حملها الشيعة والخوارج على بني أمية وعملت على أنه يجب على الأمة الرضوخ لسلطة الأمويين وتأجيل الحكم عليهم بالشرك والتكفير إلى يوم الدين)<sup>(١١)</sup>. وعلى أي حال فقد لعبت المرجئة - كما تكشف النصوص المتقدمة - دوراً كبيراً في إرساء ظلم وعبث الدولة الأموية، لذا فقد كانت المواجهة معهم حاسمةً قويةً، بل يتضح مما سيأتي بأنها من أكثر الفرق التي حذر منها أئمة أهل البيت عليه السلام شيعتهم.

## بـ- الغلاة:

- تسميتهم: مأخوذه من الغلو وهو تجاوز الحد، وسميت هذه الفرقة بهذا الاسم لأنها غالٰت وتجاوزت الحد في حق الأنبياء والأولياء عليهم السلام، فاعتقدت

بألوهيتهم وربوبيتهم، وقد حذر القرآن من هذا المنهج في التعامل مع مقامات الأولياء خصوصاً وأنه قد شاع بين المسيح فقالوا: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾<sup>(١٢)</sup>، فرد هذا الاعتقاد بـ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾<sup>(١٣)</sup>.

- زمن ظهورهم: تتضارب الأقوال في مبدأ الغلو في عالم الإسلام، وذلك - ظاهراً - تبعاً لتعدد أصناف هذه الفرق (فقد صنفهم الأشعري إلى ١٥ فرقة و البغدادي إلى ٢٠ فرقة، وقال الاسفارائي: إنهم أكثر من ٢٠ فرقة. أما الشهريستاني فاقتصر على ١١ فرقة)<sup>(١٤)</sup>. إلا أن المشهور هو ظهورها على يد عبد الله بن سباء الذي اعتقد بنبوة علي عليهما السلام ثم بألوهيته، وأنكر مصريعه وقال: إن شيطاناً تمثل في صورته. فتوهم الناس أنه قتل كما توهم اليهود والنصارى في مقتل المسيح عليهما السلام، بل هو في السماء مرفوعٌ ينزل قريباً فينتقم من أعدائه وقتلته، فلا تختلف عقيدتهم عن عقيدة المسيح، وهذا مما يؤشر على أن مبدأ ظهورها هو عصر الإمام علي عليهما السلام. وهذا مما أخبر به الرسول الأعظم عليهما السلام بأن قوماً يقولون فيك ما قالته النصارى في المسيح ابن مريم عليهما السلام، وكذلك مما يدل عليه تبرأ نفس الأمير علي عليهما السلام منهم، ففي المروي عنه عليهما السلام: (اللهم إني بريءٌ من الغلاة كبراءة عيسى بن مريم من النصارى،

**اللهم اخذهم أبداً، ولا تنصر منهم أحداً**<sup>(١٥)</sup>.

- عقیدتهم: (الغلاة من المتطاهرين بالإسلام، هم الذين نسبوا أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهما السلام من ذريته إلى الألوهية والنبوة وصفوهم من الفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد)<sup>(١٦)</sup>.  
و بهذا التعريف يندرج كل من وصفهم عليهما السلام بالتفويض أو ادعى لهم مقاماً أعلى من المقامات التي صرحا بها لهم عليهما السلام. وقد ذكر كثيراً إن لهم عقيدة خاصة تشبه إلى حد ما عقيدة المرجئة، وهي اعتقادهم (إن معرفة ومحبة أئمة أهل البيت عليهما السلام تغنى الإنسان عن عبادة الله تعالى وعن أداء الفرائض)<sup>(١٧)</sup>.  
وتعتبر المفوضة صنف من أصناف الغلاة إلا أنهم افترقوا عنهم بقوفهم بحدود أئمة عليهما السلام ونفي القدم عنهم، ذلك لأنهم قالوا بأن الله تعالى تفرد بخلقهم ومن ثم فوض إليهم خلق العالم بما فيه وجميع الأفعال.

- مواجهتها عليهما السلام هذه الفرق: وذكر في هذا الفصل بعض ما صدر منه عليهما السلام في مواجهة هاتين الفرقتين مقسمًا له إلى طوائف بحسب موضوع تلك الروايات لنستخلص بعد ذلك منها كيفية تعامله عليهما السلام معهم.

#### **مواجهة المرجئة:**

##### **- الطائفة الأولى:**

١- ما رواه القاضي النعمان في دعائم الإسلام، قال: (روينا عن جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام أنه قال: الإيمان قول باللسان وتصديق بالحنان وعمل

بالأركان، وهذا الذي لا يصح غيره، لا كما زعمت المرجئة أنه قول بلا عمل، ولا كالذى قالت الجماعة من العامة أن الإيمان قول وعمل فقط، وكيف يكون ما قالت المرجئة إنه قول بلا عمل وهم والأمة مجتمعون على أن من ترك العمل بفرضية من فرائض الله عز وجل التي افترضها على عباده منكرا لها إنه كافر حلال الدم ما كان مصرا على ذلك، وإن أقر بالله وحده وصدق رسوله بلسانه، إلا أنه يقول: هذه الفرضية ليست مما جاء به، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَةَ﴾، وبذلك استحل القوم أجمعون بعد رسول الله ص ﷺ دماء بني حنيفة وسي ذراريهم وسموهم أهل الردة إذ منعوهم الزكاة<sup>(١٨)</sup>.

٢- ما رواه الثقة الكلبي عن رجل سأله عن قول المرجئة وقال بأنهم يتحجون علينا بأن الكافر عندنا هو الكافر عند الله، فكذلك نجد المؤمن إذا أقر بإيمانه أنه عند الله مؤمن، قال عليه السلام: (سبحان الله وكيف يستوي هذان والكفر إقرار من العبد فلا يكلف بعد إقراره ببينة، فإذا اتفقا فالعبد عند الله مؤمن والكافر موجود بكل جهة من الجهات الثلاث، من نية أو قول أو عمل، والأحكام تجري على القول والعمل في أكثر من يشهد له المؤمنون بالإيمان، ويجري عليه أحكام المؤمن وهو عند الله كافر، وقد أصاب من أجرى عليه أحكام المؤمنين بظاهر قوله وعمله)<sup>(١٩)</sup>.

٣- ما رواه عن جميل بن دراج قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الإيمان فقال عليه السلام: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. قلت: أليس هذا عمل؟ قال عليه السلام: بلـ. قلت: فالعمل من الإيمان؟ قال عليه السلام: لا يثبت له الإيمان إلا

بالعمل والعمل منه)<sup>(٢٠)</sup>.

٤- ما رواه عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عاصي قال: (سألته عن الإيمان فقال عليه السلام: شهادة ألا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله، وما استقر في القلوب من التصديق بذلك)<sup>(٢١)</sup>.

٥- في البخار عن ابن البختري عن الصادق عاصي قال: (قال رسول الله عاصي: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن الإيمان ما خلص في القلب وصدقه الأعمال)<sup>(٢٢)</sup>.

#### - الطائفة الثانية:

١- عن الفضيل بن يسار عن الصادق عاصي قال: (لا تجالسوهم - المرجئة - لعنهم الله ولعن ملتهم المشركة الذين لا يعبدون الله على شيء من الأشياء)<sup>(٢٣)</sup>.

٢- عن جليل بن دراج عن الصادق عاصي قال: (بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة)<sup>(٢٤)</sup>.

#### - الطائفة الثالثة:

١- عن يونس بن يعقوب عن الصادق عاصي قال: (ملعون ملعون من قال الإيمان قول ولا عمل)<sup>(٢٥)</sup>.

٢- عنه عاصي قال: (لعن الله القدرة، لعن الله الخوارج، لعن الله المرجئة، لعن الله المرجئة)<sup>(٢٦)</sup>.

٣- عن أبي مسروق قال: (سألني أبو عبد الله عاصي عن أهل البصرة ما هم؟ قلت: مرجئة وقدرية وحرورية. قال عاصي: لعن الله تلكم الملل الكافرة

المشركة التي لا تعبد الله على شيءٍ<sup>(٢٧)</sup>.

مواجهة الغلاة :

- الطائفة الأولى:

١- كتاب المناقب، محمد بن أحمد بن شاذان بإسناده إلى الصادق عن

آبائه عن علي عليهما السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا علي! مثلك في أمي مثل المسيح عيسى ابن مريم افترق قومه ثلاثة فرق، فرقة مؤمنون وهم الحواريون وفرقة عادوه وهم اليهود، وفرقة غلووا فيه فخرجوا عن الإيمان، وإن أمي ستفترق فيك ثلاثة فرق، ففرقتك شيعتك وهم المؤمنون، وفرقتك عدوك وهم الشاكرون، وفرقتك تغلو فيك وهم الجاحدون، وأنت في الجنة يا علي وشيعتك ومحب شيعتك، وعدوك والغالي في النار)<sup>(٢٨)</sup>.

٢- نوادر الرواندي، بإسناده عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهما السلام، قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا ترفعوني فوق حقي، فإن الله تعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذنينبياً)<sup>(٢٩)</sup>

٣- عن فضيل بن يسار قال الصادق عليهما السلام: (احذروا على شبابكم الغلاة

لا يفسدوهم، فإن الغلاة شر خلق، يصغرون عظمة الله ويدعون الربوبية لعباد الله. والله إن الغلاة لشر من اليهود والنصارى والجوس والذين أشركوا. ثم قال عليهما السلام: إلينا يرجع الغالي فلا نقبله، وبنا يلحق المقصى فنقبله، فقيل له كيف ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: الغالي قد اعتاد ترك الصلاة والزكاة والصيام والحج فلما يقدر على ترك عادته وعلى الرجوع إلى طاعة الله

عز وجل أبداً، وإن المقصر إذا عرف عمل وأطاع) <sup>(٣٠)</sup>.

٤- عن الفضيل بن عثمان قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (اتقوا الله وعظموا الله وعظموا رسوله صلوات الله عليه وسلم ولا تفضلوا على رسول الله صلوات الله عليه وسلم أحداً فإن الله تبارك وتعالى قد فضلهم، وأحبوا أهل بيته حباً مقتضاً، ولا تغلوا ولا تفرقوا ولا تقولوا ما لا نقول، فإنكم إن قلتم وقلنا متم ومتنا ثم بعثكم الله وبعثنا فكنا حيث يشاء الله وكتتم) <sup>(٣١)</sup>.

٥- عنه عليه السلام: (... . فوالله ما نحن إلا عبيد الذي خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضرٌّ ولا نفعٌ، وإن رحمنا فبرحمته وإن عذبنا فبذنبنا، والله ما لنا على الله من حجةٍ ولا معنا من الله براءة، وإنما ليتون ومقبرون ومنشرون ومبعوثون وموقوفون ومسؤولون، ويلهم ما لهم لعنهم الله لقد آدوا الله وأذوا رسوله صلوات الله عليه وسلم في قبره وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي صلوات الله عليهم وها أنا ذا بين أظهركم لحم رسول الله وجلد رسول الله صلوات الله عليه وسلم، أبيت على فراشي خائفاً وجلاً مرعوباً يأمنون وأفزع، ينامون على فرشهم وأنا خائفٌ ساهرٌ وجليٌّ أتقلقل بين الجبال والبراري، أبراً إلى الله ما قال في الأجدع البراد عبد بن أبيأسد أبو الخطاب لعنه الله، والله لو ابتلوا بنا وأمرناهم بذلك لكان الواجب أن لا يقبلوه، فكيف وهم يروني خائفاً وجلاً أستعدى الله عليهم، وأتبراً إلى الله منهم، أشهدكم أنني أمرؤ ولدني رسول الله صلوات الله عليه وسلم وما معي براءة من الله، إن أطعته رحني وإن عصيته عذبني عذاباً شديداً أو أشد عذابه) <sup>(٣٢)</sup>.

٦- عن حنان بن سدير عن أبيه قال: (قلت لأبي عبد الله عليه السلام إن قوماً

يزعمون أنكم آلهة يتلون علينا بذلك قرآنًا ﴿أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْمِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ قال ﷺ: يا سدير سعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء، برأ الله منهم رسوله، ما هؤلاء على دين آبائي، والله لا يجعли وإياهم يوم القيمة إلا هو عليهم ساخطٌ قال: قلت: فما أنت جعلت فداك؟ قال ﷺ: خزان علم الله وترجمة وحي الله، ونحن قومٌ معصومون أمر الله بطاعتنا ونهى عن معصيتنا، نحن الحجة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض) <sup>(٣٣)</sup>.

#### - الطائفة الثانية:

١ - عن فضيل بن يسار قال: الصادق عليه السلام: (احذروا على شبابكم الغلة لا يفسدوهم، فإن الغلة شر خلق الله، يصغرون عظمة الله ويدعون الربوبية لعباد الله، والله إن الغلة لشر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا) <sup>(٣٤)</sup>.

٢ - قال أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: (أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يجلس إلى غالٍ فيستمع إلى حديثه ويصدقه على قوله، إن أبي حدثني عن أبيه عن جده إن رسول الله ﷺ قال: صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الإسلام، الغلة والقدرية) <sup>(٣٥)</sup>.

#### - الطائفة الثالثة:

١ - عن حنان بن سدير قال: (كنت جالساً عند أبي عبد الله عليه السلام وميسرة عنده ونحن في سنة ثمان وثلاثين ومائة، فقال له ميسرة بيع الزطبي: جعلت فداك عجبت لقومٍ كانوا يأتون معنا إلى هذا الموضع فانقطعت آثارهم وفنيت

آجالهم. قال: و من هم؟ قلت: أبو الخطاب وأصحابه. وكان متكتئاً فجلس، فرفع إصبعه إلى السماء ثم قال: على أبي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فأشهد بالله أنه كافرٌ فاسقٌ مشركٌ، وأنه يحشر مع فرعون في أشد العذاب غدوأً وعشياً. ثم قال: أما والله إني لأنفسي على أجسادٍ أصليت معه النار).<sup>(٣٦)</sup>.

٢- عن يحيى الحلبي عن أبيه عمران قال: سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ يقول: (لعن الله أبا الخطاب، ولعن الله من قتل معه، ولعن الله من بقي منهم، ولعن الله من دخل قلبه رحمة لهم).<sup>(٣٧)</sup>.

٣- عن أبان بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ يقول: (لعن الله عبد الله بن سبأ إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين وكان والله أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ عبد الله طائعاً، الويل لمن كذب علينا، وإن قوماً يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا نبراً إلى الله منهم، نبراً إلى الله منهم).<sup>(٣٨)</sup>.

٤- عن ابن مسakan عمن حدثه من أصحابنا عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ قال: سمعته يقول: (لعن الله المغيرة بن سعيد، إنه كان يكذب على أبي فاذقه الله حر الحديد. لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا وإليه مأبنا ومعادنا وبيده نواصينا).<sup>(٣٩)</sup> و المتحصل مما جمع من هذه الروايات الشريفة<sup>(٤٠)</sup> أنه يمكننا استنتاج أن الإمام عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ في مقام المواجهة الخاصة مع هاتين الفرقتين استخدم ثلاثة أساليب هي:

## ١- بيان الحقيقة:

من الملاحظ خصوصاً عند الغلاة أنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل ومن ثم يعرضونه - بما هو مشوهٌ على الناس، مما يعطيها القدرة على جذب من لا يتلكون تلك الصورة الواضحة للحقيقة، إذ لا عذر للإنسان عن ابعاده عن الحق إلا عدم وصوله إليه وعدم التعرف إليه أو معرفته للحق وجحوده عن شبيهةٍ وغيرها، ويكون في الصورة الثانية محل النعمة الإلهية على هذا الإنكار مما يزيد في مسؤوليته، وعلى كلا الأمرتين في بيان الحقيقة للغافل عنها إخراجه من الظلمات إلى النور، وبيانها لجاحدها زيادةً في إقامة الحجة عليه، فهي مطلوبةٌ في حد ذاتها، وتزيد أهميتها إذا عرفنا أن أكثر الالخارفات بين عوام الناس بهذا السبب، فتضييق الحكومات الجائرة على أهل البيت عليهما السلام وأتباعهم وعزلهم عن المجتمع وإقصائهم عنه، وفي قبال ذلك فتح المجال للتيارات المعادية لنشر أفكارها بكل حريةٍ، يعطي لهذه الشرذمة المتسع الكبير لترويج أفكارهم واحتراق الأحاديث التي تشوّه بها الحقيقة، لذا نرى بأن الإمام عليه السلام يبيّن للمرجئة حقيقة الإيمان بتبيّان حدوده (الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان)، وهكذا بالنسبة للغلاة فنراه عليه السلام يبيّن مقامهم الذي اختاره الله لهم وهو العبودية المطلقة لله تعالى (فوالله ما نحن إلا عبيد من خلقنا واصطفانا)، ويوضح لهم الضابطة في جههم (لا تفضلوا على رسول الله أحداً فإن الله تبارك وتعالى قد فضلهم، وأحبوا أهل بيته نبيكم حباً مقتضاً، ولا تغلوا ولا تفرقوا ولا تقولوا ما لا نقول... )، وفي هذا الصدد يركز الإمام عليه السلام على ضرب وتر الوجدان

الذى يشكل البوابة الكبرى للحق، فهو أقوى وأخصر طريقاً إليه فيقول عليه السلام: (إِنَّا لَمَيْتُوْنَا وَمَقْبُورُوْنَ وَمَنْشُوْرُوْنَ وَمَبْعُوثُوْنَ وَمَوْقُوفُوْنَ وَمَسْؤُولُوْنَ)، و (هَا أَنَا ذَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ لَحْمَ رَسُولِ اللَّهِ وَجْلَدَ رَسُولَ اللَّهِ)، و (أَشْهَدُكُمْ أَنِّي أَمْرَأٌ لَدِنِي رَسُولُ اللَّهِ).

## ٢- إعلان البراءة منهم:

لا يخفى ما لمفهومي الولاء والبراءة من أهمية كبيرة في الفكر الإسلامي، إذ بهما تتحدد وتتشخص هوية المسلم الحقيقي فكل من شملته دائرة الولاء فكان ولیاً لله تعالى فهو من المسؤولين برحمته الله تعالى دنياً وآخرة، وأما من خرج عن هذه الدائرة فهو من غضب الله عليهم دنياً وآخرة، ولا واسطة بينهما، إذ بين الولاء والبراءة تمام الانفصال والتعاند، فهما يشكلان امتداد خطى النور والظلمات الذي نادت به الديانات السماوية برمتها، فبينما تعني البراءة الارتباط بغير الله تعالى، يعني الولاء الارتباط بالله تعالى، وللولاء والبراءة أدوات عديدة من أبرزها اللسان، ومن أتم مصاديق البراءة به هو اللعن الذي هو (الطرد والإبعاد على سبيل السخط وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره)<sup>(٤)</sup>، وعلى أي حال فقد صدر اللعن من الإمام عليه السلام على هاتين الفرقتين بما لا يعطي للمطلع عليه أدنى شك أو ارتياضاً في خروجهما عن جادة الصواب والولاية الإلهية التي تمثل النور، ودخولهم في ولاية الشيطان المخرج لهم من النور إلى الظلمات، وجاعلهم مستحقين بالنار والخلود فيها ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾

**أُولَئِكُمُ الظَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ  
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾.**

### ٣- التحذير من مجالستهم:

لا يخفى ما للمجتمع والمجتمع من تأثيرٍ في بناء الشخصية الفكرية للإنسان، فالإنسان ميالٌ للاندماج والاكتساب من الآخرين بما يمارسون فيه، وهذه الحقيقة المهمة وغيرها نرى تركيز الإمام عثيمين في التحذير من مجالسة هذه الفرق المنحرفة، إذ أن تجربة المجتمعات السابقة خير دليل على صدق هذه الحقيقة، فحينما يألف الإنسان فكرًا ما ويعتمد عليه فيحكم هذه الألفة يكون مستعداً لرفض أي دعوةٍ مهما كانت إن كانت تصب في خلاف ما يعتقد، وهذا بتصريح القرآن في آياتٍ عديدة منها ﴿قَالُوا يَا صَالِحٌ قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَا نَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مُّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾<sup>(٤٣)</sup>، و﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَيْعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْيَنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>(٤٤)</sup>، و﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسِبَنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>(٤٥)</sup>، وغيرها من الآيات التي تبين أن شدة الارتباط بفكرٍ واجتماعٍ معينٍ تحمل الإنسان إلى مستوىً لا يستطيع أن يرتفع معه عن الواقع، فحالة الافتتان التي تصاحب الألفة والعادة بمحاللة الآخرين هي التي يحذر منها الإمام عثيمين، بل أكثر من ذلك نرى القرآن الكريم يوجب الهجرة على ضعاف النفوس الذين ينساقون وراء الفكر المنحرف، يوجب الهجرة من المجتمع الذي تضيق فيه الخيارات

على الإنسان ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِيمٌ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَا كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾<sup>(٤٦)</sup>، فأهمية هذا الأسلوب الوقائي تكمن في أنه الحل الأوحد لأولئك الذين ينبهرون وينعقون وراء كل ناعق.

ما تقدم يمثل عرضاً للمواجهة الخاصة من الإمام عاشورى لهذه الفرق، غير إن هناك أموراً أخرى صدرت من الإمام عاشورى تصب في المواجهة ولكن بصورةٍ عامةٍ يمكن تلخيصها فيما يأتي:

#### إرساء حاكمية العقل:

عن أبي عبد الله عاشورى قال: (حجۃ الله على العباد النبي، والحجۃ فيما بين العباد وبين الله العقل)<sup>(٤٧)</sup>.

عن أبي عبد الله عاشورى: (دعامة الإنسان العقل، والعقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم، وبالعقل يكمل، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره، فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً حافظاً ذاكراً فطناً فهماً، فعلم بذلك كيف ولم وحيث، وعرف من نصحه ومن غشه، فإذا عرف ذلك عرف مجراه وموصوله ومفصوله، وأخلص الوحدانية لله والإقرار بالطاعة، فإذا فعل ذلك كان مستدركاً لما فات ووارداً على ما هو آتٍ، يعرف ما هو فيه ولائيٌ شيءٌ هو هاهنا ومن أين يأتيه وإلى ما هو صائرٌ، وذلك كله من تأييد العقل)<sup>(٤٨)</sup>.

عن أبي عبد الله عاشورى في حديثٍ طويلٍ: (إن أول الأمور ومبادرتها وقوتها

وعلمتها التي لا ينتفع بشيء إلا به العقل، الذي جعله الله زينةً لخلقه ونوراً لهم، فالعقل عرف العباد خالقهم وأنهم مخلوقون، وأنه المدبر لهم، وأنهم المدبرون، وأنه الباقي وهم الفانون، واستدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه من سمائه وأرضه وشمسه وقمره وليله ونهاره، وبأن له ولهم خالقاً ومدبراً لم يزول ولا يزول، وعرفوا به الحسن من القبيح، وأن الظلمة في الجهل وأن النور في العلم، فهذا ما دفهم عليه العقل، قيل له: فهل يكتفي العباد بالعقل دون غيره؟ قال: إن العاقل لدلالة عقله الذي جعله الله قوامه وزينته وهدايته علم أن الله هو الحق وأنه هو ربها، وعلم أن خالقه محبة وأن له كراهيّة وأن له طاعةً وأن له معصيةً، فلم يجد عقله يدله على ذلك، وعلم أنه لا يوصل إليه إلا بالعلم وطلبه وأنه لا ينتفع بعقله إن لم يصب ذلك بعلمه، فوجب على العاقل طلب العلم والأدب الذي لا قوام له إلا به<sup>(٤٩)</sup>.

ومتمعن في هذه الأحاديث يرى بوضوح كيف أولى الإمام عليه السلام تلك الأهمية الكبيرة للعقل، لا لشيء إلا لأنه يشكل الداعمة للمعرفة الحقة، فهو عرف الحق تعالى وعُبد، بل إن طريق العقل هو (الطريق الوحيد لكل باحثٍ عن معالجة المسائل الأساسية للرؤيا الكونية و حلّها)<sup>(٥٠)</sup>. والمهم هنا أن يلحظ بأن الإمام عليه السلام بقدر ما يعطي للعقل هذه الأهمية يصرح عن عجز العقل لوحده لدرك كل المعلومات، وعجزه عن رسم الخريطة المتكاملة للأسس العقائدية إلا بمعونة العلم والأدب الذي لا قوام له إلا به، بل يشدد عليه السلام على ضرورة اتخاذ العلم بالإضافة إلى العقل بأن العقل قاصرٌ لوحده في الدلالة على إرادات الله تعالى من خلقه.

والمتلخص من رأيهم عليهما السلام في العقل أنه صاحب القابلية على معرفة الأسس العقائدية ومبادئها، ولكن يبقى - تبعاً لحدوديته - قاصراً ومحاجاً لهداية العلم وهو المأمور من يهدون إلى الحق تعالى بأمره، وسائل الحق إلى الخلق، فالعقل والوحي - بالمعنى الأعم - يمثلان المنهج المتكامل للمعرفة في مدرسة أهل البيت عليهما السلام.

#### الإرجاع إلى الكتاب:

عنه عليهما السلام: (ما من أمرٍ يختلف فيه اثنان إلا وله أصلٌ في كتاب الله عز وجلّ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال) <sup>(٥١)</sup>.

وعنه عليهما السلام: (إذا ورد عليكم الحديث فوجدم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلا فالذي جاءكم به أولى به) <sup>(٥٢)</sup>.

وعنه عليهما السلام: (كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديثٍ لا يوافق كتاب الله فهو زخرفٌ).

يظهر جلياً مدى أهمية القرآن في فكرهم عليهما السلام حتى جعلوه هو الفيصل الحاسم والمعيار لقبول الأحاديث أو ردّها، فالقرآن هو الجامع المشترك بين المذاهب الإسلامية وإن اختلفت كل فرقـة في كيفية استنطاقه، والمتأمل في حقيقة الإرجاع إلى الكتاب يتضح له بلا ريبٍ أنه إرجاعٌ إلى النور الواحد والحقيقة الواحدة، ألا وهي القرآن والعترة الطاهرة عليهما السلام لن يفترقا بصربيح الأحاديث المتضارفة عند الفريقين في ذلك، ولا غرو في ذلك، (فمن علم بظاهر القرآن وباطنه، وعرف تفسيره وتأويله، واطلع على متشابهه

وَمُحَكَّمٌ، وَرَدَّ الْمُتَشَابِهِ مِنْهُ إِلَى مُحَكَّمٍ، وَعَمِلَ بِعَزَائِمِهِ وَفَرَائِضِهِ وَبِسَنَتِهِ وَرَخْصِهِ، وَكَانَ مُؤْمِنًا بِجَمِيعِ أَحْكَامِهِ، وَقَالَ: (كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ)، فَهُوَ الْقُرْآنُ النَّاطِقُ، لَأَنَّ عِلْمَ الْقُرْآنِ وَمَعْرِفَتِهِ قَدْ تَحَقَّقَتِ فِي نُفُوسِهِمُ الشَّرِيفَةِ، إِذَا إِلَيْهِمْ يَأْتُونَ  
قَدْ خَالَطُهُمْ مِنَ الْقَرْنِ إِلَى الْقَدْمِ، فَالإِنْسَانُ الْكَامِلُ - الْمَعْصُومُ - قُرْآنٌ مُثْلِثٌ  
كَمَا أَنَّهُ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَمِيزَانٌ قَسْطٌ، كُلُّ ذَلِكَ عَلَى مَنْهَاجِ الْحَقِّ لَا إِجَازَةٌ<sup>(٥٣)</sup>،  
وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾  
قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: (يَهْدِي لِلإِمَامِ)<sup>(٥٤)</sup>.

## تربيّة جيل من المتكلمين:

أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا قَلْتُ فَوْيِيلٌ لَهُمْ إِنْ تَرْكُوا مَا أَقُولُ وَذَهَبُوا إِلَى مَا يَرِيدُونَ.  
 ثُمَّ قَالَ لِي: اخْرُجْ إِلَى الْبَابِ فَانظُرْ مَنْ تَرَى مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ فَادْخُلْهُ.  
 قَالَ: فَادْخُلْتُ حَمْرَانَ بْنَ أَعْيَنَ وَكَانَ يَحْسَنُ الْكَلَامَ، وَادْخُلْتُ الْأَحْوَلَ وَكَانَ  
 يَحْسَنُ الْكَلَامَ، وَادْخُلْتُ هَشَامَ بْنَ سَالِمٍ وَكَانَ يَحْسَنُ الْكَلَامَ، وَادْخُلْتُ قَيسَ  
 بْنَ الْمَاصِرِ وَكَانَ عَنْدِي أَحْسَنَهُمْ كَلَامًا، وَكَانَ قَدْ تَعْلَمَ الْكَلَامَ مِنْ عَلَيْهِ  
 الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا اسْتَقَرَ بِنَا الْجَلْسُ وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ الْحَجَّ يَسْتَقِرُ  
 أَيَّامًا فِي جَبَلٍ فِي طَرْفَ الْحَرَمِ فِي فَازِيَّ لَهُ مَضْرُوبَةٌ. قَالَ: فَأَخْرُجْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ  
 رَأْسَهُ مِنْ فَازِتَهُ فَإِذَا هُوَ بِعِيرٍ يَنْبُزُ فَقَالَ: هَشَامٌ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ. قَالَ: فَظَنَّنَا أَنَّ  
 هَشَاماً رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ عَقِيلٍ كَانَ شَدِيدَ الْخَبَةِ لَهُ . قَالَ: فَوَرَدَ هَشَامَ بْنَ الْحَكْمَ  
 وَهُوَ أَوْلَى مَا اخْتَطَطْتُ لِحَيْتِهِ وَلَيْسَ فِينَا إِلَّا مَنْ هُوَ أَكْبَرُ سِنًا مِنْهُ . قَالَ: فَوَسَعَ لَهُ  
 أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: نَاصِرُنَا بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ . ثُمَّ قَالَ: يَا حَمْرَانَ كَلَمُ  
 الرَّجُلِ . فَكَلَمَهُ فَظَاهَرَ عَلَيْهِ حَمْرَانُ . ثُمَّ قَالَ: يَا طَاقِي كَلَمُهُ . فَكَلَمَهُ فَظَاهَرَ عَلَيْهِ  
 الْأَحْوَلُ . ثُمَّ قَالَ: يَا هَشَامَ بْنَ سَالِمٍ كَلَمُهُ فَتَعْرَفَا . ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ  
 السَّلَامُ لِقَيْسِ الْمَاصِرِ: كَلَمُهُ . فَكَلَمَهُ، فَأَقْبَلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَضْحِكُ مِنْ كَلَامَهُمَا مَا  
 قَدْ أَصَابَ الشَّامِيَّ . قَالَ لِلشَّامِيِّ: كَلَمُ هَذَا الْغَلامِ يَعْنِي هَشَامَ بْنَ الْحَكْمَ،  
 فَقَالَ: نَعَمْ . فَقَالَ لِهَشَامٍ يَا غَلامَ سَلْنِي فِي إِمَامَةِ هَذَا...، انتَهَى الْأَمْرُ إِلَى إِيَّانِ  
 الشَّامِيِّ، فَالْتَّفَتَ الْإِمَامُ إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَخْذَ بَيْنَ لَهُمْ مَرَاتِبِهِمْ فِي الْمَجَادِلَةِ، حَتَّى  
 انتَهَى إِلَى هَشَامٍ فَقَالَ عَلَيْهِ لَهُ: مِثْلُكَ فَلِيَكُلِّمَ النَّاسَ<sup>(٥٥)</sup> . وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ  
 بَعْضُ النَّكَاتِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي تَدْلِي عَلَى اعْتِنَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذَا الْجَانِبِ فِي مَهْمَةِ إِرْسَاءِ  
 الْعِيْدَةِ الصَّحِيحةِ عَنْ الدُّجْمَعِ أَشِيرُ إِلَى اثْنَتَيْنِ مِنْهَا:

(يا يonus لو كنت تحسن الكلام كلمته): إذ يلاحظ فيها بأن الإمام عالى الله عنه يهتم بالطاقات العلمية المميزة ويقدمها لتنقيف المجتمع والمناقشة مع الخصوم، ولا يسمح لمن لا يملك تلك القدرة أن يتصدى لذلك، وهي من الأمور المهمة التي نبهوا عليها عالى الله عنه عن الباقي عالى الله عنه: (من أفتى الناس بغير علم ولا هدى من الله لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ولحقه وزر من عمل بفتياه) <sup>(٥٦)</sup>. وعن الصادق عالى الله عنه: (أنهاك عن خصلتين فيهما هلاك الرجال: أنهاك أن تدين الله بالباطل وتغتني الناس بما لا تعلم) <sup>(٥٧)</sup>. وعن عائشة عالى الله عنها: إن الله تعالى خص عباده بآيتين من كتابه: أن لا يقولوا حتى يعلموا، ولا يردوا ما لم يعلموا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مُّسِيقٌ الْكِتَابِ أَلَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ <sup>(٥٨)</sup>.

(مثل ذلك فليكلم الناس): وهي على طرف النقيض مما تقدم، فبينما نراه عالى الله عنه ينهى بعض أصحابه عن الكلام يشجع ويشير إلى آخرين منهم، بل ويأمرهم أن يتصدوا بأنفسهم لتعليم الناس، وهذا ما يظهر واضحاً في خطابه عالى الله عنه مع هشام بن الحكم، وكذلك في حديث آخر عن النضر بن صباح قال: كان أبو عبد الله الصادق عالى الله عنه يقول لعبد الرحمن بن الحجاج: (كلم أهل المدينة فإني أحب أن يُرى في رجال الشيعة مثلك) <sup>(٥٩)</sup>.

وهاتان النقطتان هما اللتان بينهما الإمام عالى الله عنه واختصرهما في نفس الحديث المتقدم، حيث قال في جواب يonus حين سأله: (إني سمعتك تنهى عن الكلام وتقول ويل لأصحاب الكلام، يقولون هذا يُقاد وهذا لا يُقاد

وهذا يُنسَاقُ وهذا لا يُنسَاقُ وهذا نعقله وهذا لا نعقله) فقال عليهما السلام: (إِنَّمَا  
قلتُ: فَوْيَلٌ لَهُمْ إِنْ ترَكُوا مَا أَقُولُ وَذَهَبُوا إِلَى مَا يَرِيدُونَ).

بهذا نصل إلى ختام البحث، والذي يمكن أن تتلخص فائدته في أمرين:

١- أهمية البحث العقائدي، والتي تكشف من حرص الإمام عليهما السلام على  
قويته في أوساط المجتمع.

٢- طرق الإمام عليهما السلام في الدود عن العقائد الحقة، والتي يمكن تلخيصها

في:

أ- إثبات طرق المعرفة الصحيحة من خلال:

١- الإرجاع إلى العقل.

٢- الإرجاع إلى السنة الصحيحة.

ب- تحصين المجتمع من خلال:

١- تربية جيلٍ من الطلبة المتميزين.

٢- النهي عن مجالسة الفرق المنحرفة.

٣- إعلان البراءة من المنحرفين.

والحمد لله رب العالمين.

## المواهش:

(١)الباب الحادي عشر ص ١١.

(٢) دراسات في العقيدة الإسلامية،الشيخ محمد جعفر شمس الدين ص ٣٥.

(٣)المصدر السابق نقلًا عن كتاب أبو حنيفة للشيخ محمد أبو زهرة.

(٤)الخوارج.

(٥)المرجئة.

- (٦) المعترلة.
- (٧) مقالات الإسلاميين ١٤٧-١٢٦، المذاهب الإسلامية، السبحاني ٧٤.
- (٨) آل عمران: ٢٤.
- (٩) مقالات الإسلاميين ١٤١.
- (١٠) دراسات وبحوث مؤتمر الإمام الصادق علیه السلام /مقال لمؤيد العبيدي عن الحركات السرية في الإسلام، محمد إسماعيل ٤٠.
- (١١) المصدر السابق عن العقيدة والشريعة، د. محمد جواد مشكور ١٢٣.
- (١٢) المائدة: ٧٢.
- (١٣) النساء: ١٧١.
- (١٤) دروس في الشيعة والتشيع /علي الرباني ٢٠٧.
- (١٥) البخاري ج ٢٥ ص ٢٦٥.
- (١٦) تصحيح الاعتقاد ١٠٩.
- (١٧) دروس في الشيعة والتشيع ٢٠٧.
- (١٨) دعائم الإسلام، القاضي النعمان ١:٣ نقلًا عن دراسات وبحوث مؤتمر الإمام جعفر الصادق ٣١٨.
- (١٩) الكافي ج ٢ / ٣٩ - ٤٠.
- (٢٠) المصدر ٣٨.
- (٢١) المصدر ٣٧.
- (٢٢) بحار الأنوار ج ٦٩/٧٢.
- (٢٣) الكافي ج ٥ / ٤١٠.
- (٢٤) الكافي ج ٦ / ٤٧.
- (٢٥) بحار الأنوار ج ٦٦/١٩.
- (٢٦) الكافي ج ٢ / ٤٠٩.
- (٢٧) المصدر ٤١٠.
- (٢٨) البخاري ج ٢٥/٢٦٥.
- (٢٩) المصدر ٢٦٦.
- (٣٠) المصدر ٢٦٥.
- (٣١) المصدر ٢٦٩.
- (٣٢) المصدر ٢٨٩ - ٢٩٠.
- (٣٣) المصدر ٢٩٨.
- (٣٤) المصدر ٢٦٥.

- (٣٥) المصدر .٢٧١
- (٣٦) المصدر .٢٨٠
- (٣٧) المصدر .٢٨٠
- (٣٨) المصدر .٢٨٦
- (٣٩) المصدر .٢٩٧

(٤٠) قد لا تكون كل واحدة من هذه الروايات رواية معتبرة في جميع مفرداتها على مستوى علم الرجال والحديث، ولكنها بمجموعها تعبّر عن هذه الحقيقة، وذلك لأنّه عندما تكون الروايات متضافرة أو متواترة على مضمون إجمالي يمكن الاعتماد عليها كدليل في استنباط هذا المضمون الإجمالي للوثوق بتصور أحدّها من المعصوم، وأن التضافر قد يوجب الوثوق بتصورها، لاسيما مع ملاحظة موافقة هذه الروايات للقرآن الكريم و الذي يمثل ميزاناً وضعه أئمة أهل البيت عليهم السلام في معرفة الخبر و صحته و سقمه، و لا نرى في هذه الروايات إلا تأكيداً لما هو موجود في القرآن.

(٤١) مفردات القرآن .٧٤١

(٤٢) البقرة: .٢٥٧

(٤٣) هود: .٦٢

(٤٤) البقرة: .١٧٠

(٤٥) المائدة: .١٠٤

(٤٦) النساء: .٩٧

(٤٧) الكافي ج ٤٠/١

(٤٨) المصدر .٤١-٤٠

(٤٩) المصدر .٤٤-٤٣

(٥٠) دروس في العقيدة الإسلامية، المصباح البزدي ج ١/٥٤ .

(٥١) الكافي ج ٨١/١

(٥٢) المصدر .٨٩

(٥٣) علي بن موسى الرضا عليه السلام و القرآن الحكيم، الجوادي الآملي ١٨-١٩ (بتصرف).

(٥٤) الكافي ج ٢٤٢/١

(٥٥) الكافي ج ١٩٢/١ (بتصرف).

(٥٦) المصدر .٤٢

(٥٧) المصدر .٦٠

(٥٨) المصدر .٦١

(٥٩) البحار ج ٢/١٣٦ .

## أشراط الساعة وإرهادات القيامة

عبد الله البناء

مدخلٌ بين يدي البحث:

الحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجماله، والصلوة والسلام على حبيبه المصطفى، وعترته الأطبيين الأنبياء والصالحين.

الساعة هي أعظم حدثٍ يستقبل البشرية، وهي حدثٌ قريبٌ في هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الإنسان؛ فقد لاحق لوازمه ونذرها، وتتالت طلائعه وأعلامه، وقد رُوي أنَّ النبي ﷺ كان إذا ذكر الساعة في خطبته اشتدَّ صوته، وأحرَّت وجنتاه وهو يقول: (صبحتكم الساعة أو مستكم)<sup>(١)</sup> كنایةً عن قربها ومفاجأتها!

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطابٍ له: ( وأنتم والساعة في قرنٍ وكأنّها قد جاءت بأشراطها، وأزفت بأفراطها )<sup>(٢)</sup>.  
وهو اقتباسٌ من قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةُ أَنْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءُوهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾<sup>(٣)</sup>.  
والآية تقول لنا «قدْ جاءَتْ أَشْرَاطُهَا» بصيغةٍ تحقيقيةٍ تامةٍ، ولغة نذارةٍ صريحةٍ وبليغةٍ.

وهذه النصوص الشريفة تشير لنا بحثاً قرآنياً وروائياً مهماً قد اعنت به الآيات والروايات كثيراً، إلا وهو بحث (أشرات الساعة).  
وأشرات الساعة هي علاماتها، ومقدمات القيمة وإرهاداتها، لأنَّه الشَّرْط أو الشرط بمعنى العلامة.

والباحث يجد أن علامات القيامة كثيرة جداً ومتعددة، وهذه الكثرة وهذا التنوع يدلان على أمرين:

الأول: عظمة هذا اليوم واستثنائه، هذا الذي يقول فيه أمير المؤمنين علي عليه السلام: (وكل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيشه، وكل شيء من الآخرة عيشه أعظم من سماعه)! فليكفكم من العيان السمع، ومن الغيب الخبر).<sup>(٤)</sup>.

وهذا هو نبأ القرآن إذ يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرْةٍ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.<sup>(٥)</sup>.

الثاني: خطورة هذا اليوم بالنسبة للإنسان، فتتالى له العلامات وتتنوع إنذاراً بعد إنذار، وتذكيراً مع تذكرة، حتى يتهيأ علمياً وروحياً وعملياً لاستقبال ذاك العالم الذي هو مقره الأبدى، ومصيره الحتمى، وهو حياته الحقيقية.

وأساساً اشتراط الساعة شخصت حيث لا توقيت لحدث القيامة، فلا يعلم بوقتها أحدٌ من الخلق، حتى أشرف الخلق من المرسلين، والأمين على اللوح الحفوظ من الملائكة والمقربين؛ بعد أن استأثر الله سبحانه به علم الساعة، فعلم الساعة من الغيب المستأثر المحجوب كما صرّح القرآن بذلك وأكده مراراً؛ ففي سورة الأحزاب يقول سبحانه: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.<sup>(٦)</sup>. وفي سورة الأعراف تصريح أكثر وبسط أكبر إذ قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ

ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسَّأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِي عَنْهَا  
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٧)</sup>.

وهكذا في سورة لقمان والزخرف والملك والجن والنازعات، وربما  
غيرها، وهكذا في الأخبار الشريفة يُسأل النبي ﷺ أو يُسأل جبرئيل  
الأمين عليه السلام عن الساعة فيقول: (ما المسؤول أعلم بها من السائل إِنَّمَا عِلْمُهَا  
عِنْدَ اللَّهِ)<sup>(٨)</sup>.

ولعل سر خفاء يوم القيمة شبيه بسر آجال البشر التي جعل الله عز  
وجل أيضا لا تأتיהם إلا بغتة، فإنه قرار إلهي عزيز وحكيم؛ إذ هو قرار  
استعلاء وكبراء، وقرار اختبار وتربيه ليكون الإنسان على استعداد للقاء  
الله.

على أن أشرطة الساعة لها معطيات أخرى تضاف إلى كونها أشرطـاً ليوم  
القيمة ومؤشرات على عظمته وخطورته كما سوف تعرف إن شاء الله.

#### تصنيف لعلامات القيمة:

لو أردنا تصنيفـاً لعلامات الساعة رغم كثرتها وتنوعها لأمكننا أن نبرز  
لها ثلاثة أصناف، على أن هذا الإحصاء ليس من باب تمام الاستقصاء، وإنما  
هو إبراز لأصنافٍ شاخصةٍ أمامنا، والأصناف الثلاثة هي:  
١- أحداثٌ تاريخيةٌ مهمةٌ وعالميةٌ.

٢- ظواهر اجتماعية شاذة ومنحرفة تكشف عن مستوى الانحطاط في آخر  
مراحل الدنيا.

٣- تغيراتٌ كونية مدمرة تنذر باضمحلال هذا النظام الكوني الدولي،

وتبدل النشأة بنشأة أخرى.

### الصنف الأول: الأحداث التاريخية المهمة والعالمية:

ونبدأ بذكر حدثين هما الأبرز من بين كل الأحداث، وهما:

الحدث الأول: - وهو الأهم- ظهور النبوة الخاتمةتمثلة في شخص النبي محمد ﷺ؛ ولذا جاء في الحديث الذي روى مضمونه الفريقيان في كتب التفسير والحديث: (بعثت أنا والساعة كهاتين - وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى- ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأجد الساعة بين كتفي). وفي حديث آخر عنه ﷺ: (بعثت والساعة كفرسي رهان يسبق أحدهما صاحبه بأذن، إن كانت الساعة لتسقني إليكم).

وقال أمير المؤمنين علیه السلام في خطبة له في نهج البلاغة: (إن الله جعل محمدًا علّمًا للساعة، ومبشراً بالجنة، ومنذراً بالعقوبة) <sup>(٩)</sup>.

وذهب كثيرٌ من المفسرين إلى أن آية أشراط الساعة وهي: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَاعَةً أَنْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ <sup>(١٠)</sup> - وهي الآية الوحيدة في القرآن التي عنونت علامات الساعة. هذه الآية أساساً تزيد الإشارة إلى أولى علامات القيامة وهي ظهور شخص النبي الأكرم ﷺ ونبوته الخاتمة، ولذلك جاءت بصيغة التحقيق الواقعية - كما تقدمت الإشارة. فقالت: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾؛ أي ابتدأت علامات القيامة.

وربما كان التعبير بالجمع إشارة إلى حصول علامات أخرى أيضاً، كما قيل بأن شق القمر - وهو معجزة من معجزات النبوة الخاتمة. من أشراط الساعة أيضاً كما نوه بذلك القرآن بقوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ

**الْقَمَرُ**<sup>(١١)</sup> فلاحظ التقارب بينهما في الذكر.

ولسائل أن يسأل: أين ظهور النبي ﷺ وأين القيمة؟

وقد مر إلى الآن خمسة عشر قرناً ولم تأت القيمة بعد، فكيف يكون هذا الأمر علاماً على اقتراب القيمة؟!

ولنا أن نجيب: بأنّ هذا الأمر هو أمرٌ نسبي؛ بالنسبة إلى عمر الإنسانية المديد النبوة الخاتمة هي آخر المطاف الإنساني، وأما بالنسبة لنا فإننا نستقبل علاماتٍ أشدّ قرباً إلى يوم القيمة، ومنها الحوادث التاريخية الأخرى التي سوف نذكرها، وفي الخبر أنّ النبي ﷺ كان يخطب في أصحابه قبيل الغروب فقال: (والذي نفس محمدٍ بيده، ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقي منها إلاّ مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقي منه، وما بقي منه إلاّ اليسر)<sup>(١٢)</sup>.

ثم إنّ هذه العلامة (وهي ظهور النبوة الخاتمة) فيها إيحاءٌ خاصٌ بها؛ إذ أنّ هنا ملاحظةً، وهي أنّ كلّ صنفٍ من أصناف أشرطة الساعة، بل كل شرطٍ منها له دلالاته وإيحاءاته الخاصة به، رغم اشتراكها جميعاً في كونها مقدمة للعالم الآخر، وعلامة على القيمة الكبرى، وهذا ما سنلاحظه.

والإيحاء الخاص هنا هو أنّ هذه المرحلة التشريعية هي غاية الكمال التشريعي، ولهذا انتُخبت له صفة البشر وأكمل الخلائق وهم النبي وأهل

بيته عليه السلام.

### الحدث التاريخي الآخر:

مَا عُدَّ من أشرطة الساعة أيضاً - كما في الأخبار - ظهور وارث الأنبياء، وخاتم الأنمة والأوصياء المنتظر المهدى (أرواحنا فداء)، وقيام الدولة الإلهية

العالمية.

والروايات تشير إلى أن استكمال هذا الحدث هو حقيقة غاية النضج البشري، والكمال الديني والإنساني، وربما كان هذا هو الإيحاء الخاص بهذه العلامة.

### حوادث تاريخية أخرى قبيل الساعة:

ودون ذينك الحديث هناك حوادث أخرى عديدة سوف تقع أيضاً بين يدي الساعة، ومن هذه الحوادث ما يشير إليه هذا المقطع القرآني من سورة النمل:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِأَيَّاتِنَا لَا يُوقِنُونَ \* وَيَوْمَ نَحْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِنْ يُكَذِّبُ بِأَيَّاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ أَكَذَّبْتُمُ بِأَيَّاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾<sup>(١٣)</sup>.

وهذا المقطع الشريف يشتمل على ذكر حديثين من أحداث المستقبل؛ أحدهما لا شك في كونه من آخر أحداث الدنيا وطلائع الآخرة، وهو خروج دابة الأرض، والآخر وقع الكلام بين المسلمين في كونه من وقائع الدنيا أم من وقائع الآخرة؛ وهو حشر أفواج وجماعات محددة ومميزة من الأمم وهي رموز الكفر ورؤوس الضلال، فهل هي رجعة لهم في الدنيا فتكون من أشراط الساعة، أم هو حشر خاص لأئمة الكفر والفساد في يوم الخشر؟

فهنا وقفتان:

## الوقفة الأولى: دابة الأرض آخر الآيات والبيانات السماوية:

بحسب بعض الأخبار وبيانات المفسرين يكون وقتُ في آخر الزمان تستقرّ فيه نفوس أهل الإيمان على إيمانها، ونفوس أهل الانحراف والتكذيب على ضلالها وعنادها، وذلك في علم الله، فيختتم على هؤلاء وهؤلاء، ويرتفع التكليف بالنسبة للمكذبين لارتفاع موضوعه، وتحقّ عليهم كلمة العذاب؛ وهو قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي تنجّزت فيهم كلمة الله، وتحقق فيهم وعده وأمره بالجزاء والعقوبة، فحينئذٍ يُخرج الله لهم دابةً من الأرض آيةً حارقةً، وهي تكلّم الناس بخطاب السماء - كما يفعل الأنبياء عليهما السلام - ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِيَأْيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، لكنها - كما في الأخبار - تملك قدرةً إلهيةً قاهرةً وبرهاناً حقاً ظاهراً، فتكون آيةً في قدرتها، وآيةً في برهانها، وتكون بذلك ظاهرةً قاهرةً للناس، وتسنمهم بحقيقةتهم وسماً إلهياً على جباههم ونواحיהם، هذا مؤمنٌ وهذا كافرٌ حتى يتنازوا، فيخضع لها كل من يراها، ويستسلم لأمر الله، ويحصل عنده اليقين، بأنّ وعد الله حق، وأنّ آية القيمة قد أقبلت.

ولكن أبواب التوبة توصى آنذاك؛ لأنّ الإيمان إنما يقع اضطراراً حينها، لا اختياراً وطوعاً، وهذا كما يكون في يوم الجزاء لكل الخلائق كما أخبر بذلك القرآن الصادق: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾<sup>(١٤)</sup>.

لكنّ المحدثين والمفسرين اختلفوا في نقولاتهم في تشخيص هوية هذه الدابة الإلهية وصفاتها، ففي أخبار العامة أنها كائنٌ غريبٌ أشبه بالحيوانات والطيور، لكنه يفعل فعل البشر ويقابلهم ويكلّمهم، ثم تناقضت أوصافه

عند الناقلين.

وأماماً أخبار أصحابنا عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فقد اشتمل العديد منها على تطبيق هذا الكائن المرسل من الله على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام؛ إذ يرجعه الله عز وجل ضمن أفواج الصالحين من البشر، فتكون هذه الحادثة مندجة مع حادثة الرجعة التي سنشير إليها في الوقفة الثانية، وبذلك يتشكل انسجاماً وارتباطاً بين هذه الآية والأية التي تليها من هذا المقطع الشريف.

ففي التفسير الأمثل للفقيه الشيخ مكارم الشيرازي مع نخبة من العلماء أشار المصنف حفظه الله إلى كثرة الروايات الواردة بهذا التطبيق عندنا، ونقل بعضها، وقال في ضمن عرضه: (وينقل العلامة الجلسي في بحار الأنوار بسندي معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (انتهى) رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملًا ووضع رأسه عليه، فحرّكه برجله ثم قال: قم يا دابة الأرض، فقال رجل من أصحابه يا رسول الله أيسّمى ببعضنا بعضاً بهذا الاسم؟ فقال: لا والله ما هو إلا له خاصة، وهو الدابة الذي ذكره الله في كتابه فقال: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِأَيَّاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، ثم قال: يا علي إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ومعك ميسّم تسم به أعداءك) <sup>(١٥)</sup>.

والعلامة الطباطبائي في المثلث أيضاً نقل هذه الرواية في بحثه الروائي في الميزان ثم قال: والروايات في هذا المعنى كثيرة من طرق الشيعة، انتهى.

وجملة من القرائن من داخل الآية الكريمة ومن خارجها مما ورد حتى في أخبار العامة تؤيد كون المرسل إنساناً عظيماً، فلاحظ البحوث التفسيرية في (الأمثل) وغيره.

ولا تستوحش من استخدام مفهوم الدابة في هذا المورد؛ لأنّ الكلمة الدابة وإن كان الأغلب في الألسن استخدامها في غير الإنسان، لكنّها في الاستعمال القرآني استخدمت مراراً فيما يعمّ الإنسان وغيره؛ من قبيل قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَرًا وَمُسْتَوْدِعًا﴾<sup>(١٦)</sup>.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمٍ﴾<sup>(١٧)</sup>.

وغير ذلك ما يوافق المعنى اللغوي للكلمة كما لا يخفي.

ولعلّ هذا الاستخدام في آية البحث كان لغرض إخفاء هوية المرسل في العرض القرآني، كما هو الشأن في جملة من القضايا العقائدية الحساسة بين المسلمين كقضية الإمامة وتعيين شخص الإمام؛ وذلك لأغراضٍ هامةٍ متصرفةٍ ذكرها بعض الباحثين ولا نطيل بذكرها في المقام، والله سبحانه هو العالم بحقائق الأحداث، وله المشيئة الكاملة في خلقه.

### الوقفة الثانية: الحشر الخاص أو العقيدة بالرجعة:

الحدث الثاني الذي جاء ذكره في المقطع الشريف المذكور من سورة النمل هو قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾<sup>(١٨)</sup>.

وقد ذكر مفسرو العامة أن هذه الآية تختلف مورداً عن الآية التي سبقتها وإن كانتا في سياق ذكريٍ واحدٍ، فإنَّ هذه الآية انتقلت من علامات الساعة إلى حدثٍ من أحداث يوم القيمة؛ ألا وهو حشر فئاتٍ خاصةٍ من كل أمةٍ تمثل أئمة الكفر إِمَّا قبل الحشر العام لكونهم السابقين إلى النار، أو بعده إذ المراد به حينئذٍ الحشر للعذاب بعد الحشر الكلي الشامل لجميع الخلق، فهو حشرٌ بعد حشرٍ.

وأما علماؤنا من مدرسة أهل البيت عليه السلام فقالوا: هذا خلاف ظاهر الآية الكريمة، وناقشوا بنفس ما رواه القمي عن أبيه عن ابن أبي عمر عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (ما يقول الناس في هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾؟ قلت: يقولون إنه في القيمة. قال: ليس كما يقولون، إنها في الرجعة، أيحشر الله في القيمة من كل أمة فوجاً ويدع الباقين؟! إنما آية القيمة ﴿وَحَشَرَنَا هُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾<sup>(١٩)، (٢٠)</sup>.

واعتقد جل علمائنا أنَّ الآية من آيات الرجعة التي تعني رجوع فئاتٍ خاصةٍ بعد موتهم بقدرة الله في آخر الزمان، مما يعد علماً من علامات الساعة. والذي يؤيد ويدعم هذا الظهور في الآية الكريمة هو وقوعها في سياقٍ يتحدث عن علامات القيمة ومقدماتها، فقبلها كانت آية الدابة، وبعدها آية النفح في الصور قبل الحشر، فكيف يتحدث القرآن عن بعض تفاصيل الحشر، ثم يتبعها بالحديث عن النفح في الصور قبل قيام الناس للحشر؟! وعلى كل حال فالعقيدة بالرجعة عندنا لا تستند فقط إلى هذا الظهور القرآني الذي هو قابلاً للتأويل، بل تستند أيضاً إلى عشرات الروايات

الصحيحة عن أئمة أهل البيت عليهما السلام، حتى قال العلامة المجلسي في بحار الأنوار وهو في مقام استعراض المصادر الحديثية المختلفة لهذه العقيدة: (وَكَيْفَ يُشَكُّ مُؤْمِنٌ بِحَقِيقَةِ الْأَئِمَّةِ الْأَطْهَارِ فِيمَا تَوَاتَرُ عَنْهُمْ فِي قَرِيبٍ مِّنْ مَائِي حَدِيثٍ صَرِيحٍ، رَوَاهَا نِيفٌ وَأَرْبَعُونَ مِنَ الثَّقَاتِ الْعَظَامِ وَالْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ فِي أَرْبَعِينَ مِنْ خَمْسِينَ مِنْ مُؤْلِفَاتِهِمْ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِثْلُ هَذَا مَتَوَاتِرًا فَفِي أَيِّ شَيْءٍ يَكُنْ دَعْوَى التَّوَاتِرِ؟!)<sup>(٢١)</sup>.

وقال العلامة الطاطبائي - الذي هو من أعلام التحقيق والتتبّع في الأخبار كما هو من أعلام المفسرين - قال في بحثه الروائي في ذيل الآية الكريمة محل البحث: (وَأَخْبَارُ الرَّجْعَةِ مِنْ طُرُقِ الشِّيَعَةِ كَثِيرَةٌ جَدًّا).<sup>(٢٢)</sup>

وقال العلامة الطبرسي في جمع البيان الذي هو تحرير لتفسير شيخ الطائفة الطوسي:

(وَقَدْ تَظَاهَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ أَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَعِيدُ عَنْدِ قِيَامِ الْمَهْدِيِّ ﷺ قَوْمًا مِّنْ تَقدِّمِ مَوْتِهِمْ مِنْ أُولَائِهِ وَشَيْعَتِهِ لِيَفْوِزُوا بِثَوَابِ نَصْرَتِهِ وَمَعْوِنَتِهِ، وَيَبْتَهِجُوا بِظُهُورِ دُولَتِهِ، وَيَعِيدُ أَيْضًا قَوْمًا مِنْ أَعْدَائِهِ لِيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ، وَيَنَالُوا بَعْضَ مَا يَسْتَحْقُونَ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْقَتْلِ عَلَى أَيْدِي شَيْعَتِهِ، وَالذُّلُّ وَالْخَزْيُ بِمَا يَشَاهِدُونَ مِنْ عَلُوِّ كَلْمَتِهِ ...).<sup>(٢٣)</sup>

وأعجب مَنْ يَسْتَسْخِفُ أَوْ يَسْتَبْعُدُ قَضِيَّةَ الرَّجْعَةِ لِأَمْوَاتٍ قَدْ انْقَرَضُوا وَهَذَا الْقُرْآنُ بَيْنَ يَدِيهِ يَحْدِثُهُ عَنْ رَجْعَاتٍ عَدَّهُ قَدْ تَحَقَّقَتْ بِقَدْرَةِ اللَّهِ الَّذِي سُوفَ يَرْجِعُ كُلَّ الْخَلَائِقَ فِي الْخَسْرَ، فَهَذَا الْقُرْآنُ يَقُولُ لَنَا بِلِسَانِ الْخُطَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ

الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ<sup>(٢٤)</sup>.

ويحدثنا عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهَرًا فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ \* ثُمَّ بَعْثَانَكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(٢٥)</sup>، وغير ذلك من الآيات.

وأما فلسفة الرجعة وأهدافها وأبعادها فهذا يحتاج إلى مقام آخر لتفصيل هذا الحدث الهام وتحليله<sup>(٢٦)</sup>، وأظن أنه لا ينفصل في أبعاده وأهدافه عن ظهور دولة الحق العالمية؛ إذ هما حدثان بينهما تقارن - كما عرفت - فالظاهر أنه بينهما أدواراً وأهدافاً مشتركةً، والله سبحانه العالم.

ثم إن هناك حوادث تاريخية أخرى عُدت في الأخبار من أشراط الساعة من قبيل ظهور السفياني والدجال ونزول النبي عليه السلام، ولكنها بشكل عام مقارنة لظهور الإمام المهدي عليه السلام، ونكتفي بإشارة بعض الأخبار الآتية في ثنايا البحث إليها، عن الإفاضة في بيانها طليباً للاختصار.

## الصنف الثاني من أشراط الساعة: الظواهر الاجتماعية الشاذة عن الدين والقيم:

هذا الصنف قد وردت فيه روايات كثيرة، وهي وإن كانت بشكل عام ضعيفة الطرق والإسناد، إلا أنها بمجموعها تكشف لنا عن وجود انحدار شديد في السلوك الشرعي والأخلاقي في آخر الزمان.

ويكفينا في المقام أن نشير إلى اليسير منها، وهي هذه الأخبار:

١- عن النبي ﷺ قال: (من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويظهر

الجهل، ويُشرب الخمر، ويفشو الزنا<sup>(٢٧)</sup>.

٢- وعنَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (لا تَقُومُ السَّاعَةَ حَتَّى يُعِزَّ اللَّهُ فِيهِ ثَلَاثًا، دَرْهَمًا مِنْ حَلَالٍ، وَعِلْمًا مِسْتَفَادًا، وَأَخَاً فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ )<sup>(٢٨)</sup>.

٣- قال ابن عباسٌ: حججنا مع رسول الله ﷺ حجّة الوداع.. فأخذ بحلاقة باب الكعبة، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: (ألا أخبركم بأشراط الساعة؟ فكان أدنى الناس منه يومئذٍ سلمان، فقال: بلـى يا رسول الله. قال ﷺ: إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ إِضَاعَةُ الصَّلَوَاتِ، وَاتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ، وَالْمَلِيلُ مَعَ الْأَهْوَاءِ، وَتَعْظِيمُ أَصْحَابِ الْمَالِ، وَبَيْعُ الدِّينِ بِالدُّنْيَا، فَعِنْهَا يُذَابُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ فِي جَوْفِهِ كَمَا يُذَابُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ مَا يَرَى مِنْ الْمُنْكَرِ فَلَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَغْيِرْهُ.

قال سلمان: وإنَّ هـذا لـكـائـنـ يـا رـسـولـ اللهـ؟

قال: إـيـ وـالـذـيـ نـفـسيـ بـيـدـهـ.

يا سلمان: إـنـ عـنـدـهـ يـلـيـهـ أـمـرـاءـ جـوـرـةـ، وـوزـرـاءـ فـسـقـةـ، وـعـرـفـاءـ ظـلـمـةـ، وـأـمـنـاءـ خـوـنـةـ.

فـقـالـ سـلـمـانـ: وـإـنـ هـذاـ لـكـائـنـ يـا رـسـولـ اللهـ؟!

وهـكـذـاـ أـخـذـ النـبـيـ ﷺـ فـيـ الـاسـتـرـسـالـ فـيـ هـذـاـ النـمـطـ مـنـ عـلامـاتـ السـاعـةـ فـيـ روـاـيـةـ طـوـيـلـةـ جـدـاـ رـوـاهـاـ القـمـيـ فـيـ تـفـسـيرـهـ، وـمـنـ بـيـنـ فـقـرـاتـهـ هـذـهـ الـفـقـرـةـ أـيـضاـ: إـيـ وـالـذـيـ نـفـسيـ بـيـدـهـ يـاـ سـامـانـ، وـعـنـدـهـ يـمـحـيـجـ أـغـنـيـاءـ أـمـتـيـ لـلـنـزـهـةـ، وـيـمـحـيـجـ أـوـسـاطـهـ لـلـتـجـارـةـ، وـيـمـحـيـجـ فـقـرـأـوـهـمـ لـلـرـيـاءـ وـالـسـمـعـةـ، فـعـنـدـهـ يـكـوـنـ أـقـوـاـمـ يـتـعـلـمـونـ الـقـرـآنـ لـغـيـرـ اللهـ، وـيـتـخـذـونـهـ مـزـامـيرـ، وـيـكـوـنـ أـقـوـاـمـ يـتـفـقـهـونـ لـغـيـرـ اللهـ،

ويكثر أولاد الزنا، ويتعذبون بالقرآن، ويتهافتون بالدنيا) <sup>(٢٩)</sup>.

٤- وعنه صلوات الله عليه: (لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق) <sup>(٣٠)</sup>.

وكان هذا الأمر هو سر انتهاء الدنيا وقيام الساعة حيث؛ حيث لم يبق فيها عنصر خير من البشر يعول عليه في إعمارها.

والظاهر أنَّ من دلالات هذه الروايات التي تخبر بهذه الظواهر هو شدُّ بقايا نفوس الأخيار في آخر الزمان كما تنوه بذلك الرواية الأخيرة الآتية في هذا العرض.

٥- عن النبي صلوات الله عليه: (أيَّها النَّاسُ إِنَّ بَيْنَ يَدِي السَّاعَةِ أَمْوَالًا شَدَادًا، وَأَهْوَالًا عَظَامًا، وَزَمَانًا صَعِبًا، يَتَمَلَّكُ فِيهِ الظَّلْمَةُ، وَيَتَصَدِّرُ فِيهِ الْفَسَقَةُ، وَيُضَامُ فِيهِ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُضْطَهَدُ فِيهِ النَّاهُونُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَأَعْدَدُوا لِذَلِكَ الْإِيمَانِ، وَعَضَّوْا عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ، وَجَهَوْا إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَكْرَهُوا عَلَيْهِ النُّفُوسَ، تُفْضِلُوا إِلَى النَّعِيمِ الدَّائِمِ) <sup>(٣١)</sup>.

### الصنف الثالث: التغيرات والحوادث الكونية المدمرة:

وهذا الصنف هو أبرز ما اعنى بذكره القرآن في هذا البحث، فتحددَ عنه كثيراً، وذكر له حوادث كثيرة، وقرنها بذكر الآخرة كما سنلاحظ:

١- من هذه الحوادث أو من مقدماتها ما أشير إليه في تفسير قوله تعالى:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ \* يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابُ

الْيَمِّ﴾ <sup>(٣٢)</sup>.

فقد اختلف في هذا الدخان، لكن عدداً من الأخبار صرحت أنه آية من أشراط الساعة؛ ففي نهاية العالم سيغطي السماء دخانٌ غليظٌ ومحيفٌ، يكون

علامةً على دمار الكون وحلول اللحظات الأخيرة لهذه الدنيا، وبداية عذاب الله الأليم للظالمين والمفسدين، حيث إنَّ هذا الدخان يغشى الناس فيدخل في أسماع الكُفَّار، حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيذ<sup>(٣٣)</sup>، ويُعترى المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلُّها كبيتٍ أُوقد فيه ليس فيه خصاص (أي خلل وخرق)، يُمْدَّ ذلك أربعين يوماً، كما في الخبر عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام<sup>(٣٤)</sup>.

وفي تفسير الدر المنشور يروي حذيفة بين اليمان عن النبي ﷺ أنه ذكر أربع علاماتٍ لاقرابة القيمة:

**الأولى: ظهور الآجال، والأخرى: نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، والثالثة: النار التي تظهر من أرض عدن، والدخان.**

فسؤال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟

فتلا رسول الله ﷺ: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ»، وقال: يملا ما بين المشرق والمغارب يكثُر أربعين يوماً وليلةً، أما المؤمن فيصييه منه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فبمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودببه<sup>(٣٥)</sup>.

وفي البخار عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام عن رسول الله ﷺ قال: (عشر قبل الساعة لابد منها: السفياني، والدجال، والدخان، والدابة، وخروج القائم عَلَيْهِ السَّلَام، وطلع الشمس من مغربها، ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، وخسف بالشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى الخشر)<sup>(٣٦)</sup>.

وكل هذه العلامات قد تعدد ذكرها في الأخبار، لكننا لا نطيل بعنونتها

وبختنا، بل نكتفي بهذه الإلماحة.

٢- قوله سبحانه في سورة المرسلات وهو يتحدث عن علامات اليوم الموعود ومؤشراته الكونية: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ \* فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ \* وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ \* وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ \* وَإِذَا الرَّسُولُ أُقْتَتْ \* إِيَّ يَوْمٍ أُجْلَتْ \* لِيَوْمِ الْفَصْلِ \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾<sup>(٣٧)</sup>.

و(انطمام النجوم) هو انحصار أثيرها من النور وغيره.

و(انفراج السماء) هو انشقاقها وتصدعها.

و(نصف الجبال) هو قلعها من مكانها وإزالتها.

وذكرت حوادث أخرى في سور عديدة من قبيل قوله سبحانه:

أ- ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوْرَتْ﴾<sup>(٣٨)</sup> أي ذهب ضوؤها ونورها فأظلمت واضمحلت.

ب- ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾<sup>(٣٩)</sup> أي تساقطت وتناثرت.

ج- ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيرَتْ﴾<sup>(٤٠)</sup> عن وجه الأرض فصارت هباءً منبأً وسراباً.

فكملها حوادث مهولةً ومدمرةً للكون كله، يصعب على العقل البشري أن يستوعبها أو يتصورها، وكل ذلك يقع استدراجاً لتبدل النشأة؛ إذ أنّ النظام الكوني الجديد يحتاج إلى نشأة جديدةٍ و مختلفةٍ تماماً ﴿وَنَنْشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٤١)</sup>.

وهذا هو الإيحاء الخاص لهذا النمط من علامات الساعة، فعلامات الساعة عادةً هي من الجريات الطبيعية لسير الوجود وحركة الموجودات

لَكُنْهَا لارباطها بالساعة أو اقتربا منها عُدّت من أشراطها.  
يقول العلامة الطباطبائي في بيان ما ذُكر - وهو يفسّر أشراط الساعة من سورة المرسلات - (وقد عرّف سبحانه اليوم الموعود بذكر حوادث واقعة تلازم انقراض العالم الإنساني، وانقطاع النظام الدنيوي؛ كانطمام النجوم، وانشقاق الأرض، واندكاك الجبال، وتحول النظام إلى نظام آخر يغايره، وقد تكرّر ذكر ذلك في كثيرٍ من السور القرآنية، وخاصةً السور القصار كسورة النبأ والنازعات والتكمير والانفطار والانشقاق والفجر والزلزال والقارعة، وغيرها .

ومن المعلوم بالضرورة من بيانات الكتاب والسنة أنّ نظام الحياة في جميع شؤونها في الآخرة غير نظامها في الدنيا، فالدار الآخرة دارٌ أبديةٌ فيها محسن السعادة لساكنيها أو محسن الشقاء، والدنيا دار فناءٍ وزوال، لا يحكم فيها إلا الأسباب والعوامل الخارجية الظاهرة، مخلوطٌ فيها الموت بالحياة، والفقدان بالوجود، والشقاء بالسعادة. . وبالجملة النشأة غير النشأة.

فتعرّيفه تعالى نشأة البعث والجزاء بأشراطها التي فيها انطواء بساط الدنيا بخراب بنيان أرضها وانتساف جبالها وانشقاق سمائها وانطمام نجومها إلى غير ذلك من قبيل تحديد نشأة بسقوط النظام الحاكم في نشأة أخرى.  
قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عِلِّمْتُمُ النَّشَأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾<sup>(٤٢)، (٤٣)</sup>.

#### التمايز بين أشراط الساعة وأحوال القيامة:

إذا انتهى العالم بهذه الانفجارات الم亥لة، بدأ الكون يستقبل عالم الآخرة، لكنه قبل ذلك يكت في صحته ما شاء الله من السنين، وبتعبير

بعض الأخبار يكث في مكثه! ثم تبدأ مراحل الآخرة، وأولها حوادث كونية مهولة أيضاً، لكنها ليست من أشراط الساعة، وإنما هي من أحداثها ومراحلها، ومنها زلزلة الأرض ودكّها ومدّها، فهذه ونحوها كلّها من مقدمات الحشر وأهوال القيمة، ولذلك فهي تقترن ذكرًا وواقعاً بالبعث والحضر والنشر والحساب كما قال الحق عزّ وجلّ:

﴿إِذَا زُلْزِلتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا \* وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا \* وَقَالَ إِلَيْهَا النَّاسُ مَا لَهَا \* يَوْمَئِذٍ تُحَدَّثُ أَخْبَارُهَا \* بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا \* يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرُوا أَعْمَالَهُمْ \* فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ﴾<sup>(٤٤)</sup>.

بل نسبت الزلزلة للساعة صريحاً في قوله جلت عظمته:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ \* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذَهَّلُ كُلُّ مُرْضِعٍ عَمَّا أَرْضَيْتَهُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنْ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾<sup>(٤٥)</sup>.

(مولاي وارحمني في حشري ونشرني، واجعل في ذلك اليوم مع أوليائك موقفي، وفي أحبابك مصدرني، وفي جوارك مسكنني، يا رب العالمين).  
والحمد لله، والصلوة على رسول الله، وعتره الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً.

### المواهش:

(١) ميزان الحكمة ج ٧: ٢٨٧٣.

(٢) ميزان الحكمة ج ٧: ٢٨٧٦.

(٣) محمد ﷺ: ١٨.

- (٤) ميزان الحكمة ج ١: ٤١.
- (٥) السجدة: ١٧.
- (٦) الأحزاب: ٦٣.
- (٧) الأعراف: ١٨٧.
- (٨) لاحظ ميزان الحكمة ج ٧: ٢٨٧٣.
- (٩) ميزان الحكمة ج ٧: ٢٨٧٢ (اقتراب الساعة).
- (١٠) محمد: ١٥.
- (١١) القمر: ١.
- (١٢) التفسير الأمثل في تفسير آية ١٨ من سورة محمد ﷺ.
- (١٣) النمل: ٨٥ - ٨٢.
- (١٤) النور: ٢٥.
- (١٥) هذا النص نقلناه من الميزان في بحثه الروائي؛ لأن الأمثل إنما نقل مضمون الحديث.
- (١٦) هود: ٦.
- (١٧) النحل: ٦١.
- (١٨) النمل: ٨٣.
- (١٩) الكهف: ٤٧.
- (٢٠) الميزان ج ١٥: ٤٠٦.
- (٢١) بحار الأنوار ج ٥٣: ١٢٢.
- (٢٢) الميزان ج ١٥: ٤٠٦.
- (٢٣) مجمع البيان ج ٧: ٣٦٧.
- (٢٤) البقرة: ٢٤٤.
- (٢٥) البقرة: ٥٧ - ٥٦.
- (٢٦) وإن كانت الكلمة التي نقلناها عن مجمع البيان قد تضمنت - نقلًا عن الأخبار - الهدف من الرجعة، وهذه الكلمة هي في الواقع للشيخ الطبرسي رحمه الله وهو بدوره شارك أستاذه السيد المرتضى في مثل هذه المضمون الذي نُقل بعينه عنه في التفسير الأمثل وأمامًا تحليل نفس التفسير الأمثل لفلسفة الرجعة فيقول فيه: يبدو أن الرجعة للطائفة المؤمنة من أجل إكمال حلقتها التكاملية، وللطائفة الكافرة والمنافقه والطاغية من أجل أنه تذوق جزاءها الدنيوي. وبتعبير آخر: إن الطائفة المؤمنة (خالصة الإيمان) الذين واجهوا المowanع والعوائق في مسيرة تكاملهم المعنوي في حياتهم ولم يتمكنوا الكمال اللائق باستعدادهم، حكمة

- الله تقتضي أن يتكاملوا عن طريق الرجعة لهذه الدنيا، وأن يكونوا شهداء الحكومة العالمية للحق والعدل، وأن يساهموا في بناء هذه الحكومة؛ لأن ذلك من أعظم الفخر.(ج ١٢: ١٣٤ الطبعة ال بيروتية).
- (٢٧) التفسير الأمثل / الآية ١٨ من سورة محمد ﷺ.
- (٢٨) ميزان الحكمة ج ٧: ٢٨٧٦.
- (٢٩) نقلها التفسير الأمثل في تفسير آية ١٨ من سورة محمد ﷺ.
- (٣٠) ميزان الحكمة ج ٧: ٢٨٧٨.
- (٣١) ميزان الحكمة ج ٧: ٢٨٧٧.
- (٣٢) الدخان: ١٠ - ١١.
- (٣٣) أي المشوي، يقال: (حند الشاة) أي شواها وجعل فوقها حجارة محممة لتنضجها، فهي حينئذ المختار من صحاح اللغة).
- (٣٤) تفسير نور الثقلين ومجمع البيان في تفسير الآية الكريمة من سورة الدخان.
- (٣٥) نقله التفسير الأمثل في تفسير الآية.
- (٣٦) بحار الأنوار ج ٥٢: ٥٢٩.
- (٣٧) المرسلات: ٧ - ١٤.
- (٣٨) التكوير: ١.
- (٣٩) التكوير: ٢.
- (٤٠) التكوير: ٣.
- (٤١) الواقعة: ٦١.
- (٤٢) الواقعة: ٦٢.
- (٤٣) الميزان ج ٢٠: ١٤٨.
- (٤٤) سورة الزلزلة.
- (٤٥) الحج: ١ - ٢.

## الجاهلية قبل بعثة النبي الأكرم ﷺ

(القسم الأول)

السيد حسن الغريفي

تمهيد:

عنيت كتب السيرة النبوية ودراساتها من خلال أبعاد وزواياً ثلاثة، الزاوية العقائدية والزاوية التشريعية والزاوية التربوية، والقرآن حينما تناول قصص الأنبياء تناولها أساساً لأجل المدف العقائي والتربوي دون التشريعي، أما عنایته بواقع سيرة خاتم الأنبياء ﷺ فقد استهدف الأهداف الثلاثة مع ملاحظة كون المصدر الأوسع في الجانب التشريعي تركه القرآن لسنة النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

نحاول هنا أن نبحث الأبعاد الموضوعية من خلال التعرّف على حياة النبي ﷺ، والتي تشكلت في مراحل ثلاثة: من ولادته إلى بعثته، ومن بعثته إلى هجرته، ومن هجرته إلى رحلته، وهذه الفصول الثلاثة درسها أصحاب السير والتاريخ ووقفوا على تفاصيلها.

في المراحل الثلاث لسيرة النبي ﷺ نختار موضوعاً كلّياً يعكس الأبعاد والزوايا التي ذكرت، مثلًّا الزاوية التربوية في المرحلة الأولى لحياة النبي ﷺ إلى بعثته، وهو القسم الأول من البحث حول (الوضع الجاهلي قبل البعثة)، إضافةً للزوايا الأخرى العقائدية والتشريعية التي سنتناولها في المراحل التالية من حياة النبي الأكرم ﷺ، إذ لا يمكن الدخول في مسيرة النبي الأكرم ﷺ

وسرير غورها من دون التعرف على التحول المأهيل الذي أحدثته بعثة نبينا الأكرم ﷺ على واقع البشرية آنذاك، إذ يصعب أخذ الصورة كاملةً عنبعثة الحمدية الهادبة من دون معرفة الوضع السائد في الجاهلية من خلال المرحلة الأولى من حياة النبي الأكرم ﷺ من ولادته إلى بعثته، فتناول موضوع (الجاهلية) التي تقابل مصطلح (الإسلام) في معناها وأساليبها ومظاهرها على الواقع الإنساني.

#### **مفهوم الجاهلية في الإسلام:**

كلمة (الجاهلية) مشتقةٌ من (الجهل)، وهي كمصطلاحٍ تغاير الجهل، إذ الجهل يُرَادُ به ما يقابل العلم فِيقال: عِلمٌ وجَهْلٌ، أما الجاهلية فِيُرَادُ بها أعم من ذلك، فالجاهلية كمصطلاحٍ يقابل المصطلح الإسلامي: وهو مجموعة الأفكار والعواطف والأعمال والمواقف والسلوكيات المضادة لشريعة الإسلام والحضارة الإنسانية بوجهٍ عامٍ<sup>(٢)</sup>.

يذكر الشيخ شمس الدين في كتابه (الجاهلية والإسلام):

إن الجاهلية في حقيقتها اسمٌ للضلال والانحراف عن العقلانية الصحيحة والمناهج المستقيمة، وهي صفةٌ لعالم ما قبل الإسلام كله بما فيه من عربٍ وغيرهم، وهي أيضاً صفةٌ للمبادئ والمثل التي تعثر بها المادية المعاصرة على اختلاف مظاهرها وأشكالها<sup>(٣)</sup>.

#### **الجاهلية في القرآن الكريم:**

ذكر صاحب الميزان العلامة الطباطبائي رحمه الله: (القرآن يسمى عهد العرب

المتصل بظهور الإسلام بالجاهلية، وليس إلا إشارةً منه إلى أن الحاكم فيهم يومئذٍ الجهل دون العلم، والسيطرة عليهم في كل شيءٍ الباطل، وسفر الرأي دون الحق، وكذلك كانوا على ما يقصه القرآن من شؤونهم<sup>(٤)</sup>. وذكر القرآن الجاهلية في عدة آيات:

- ﴿يَظْنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنٌّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾<sup>(٥)</sup>.
- ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيمَةَ حَمِيمَةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾<sup>(٦)</sup>.
- ﴿وَلَا تَبَرِّجْنَ تَبَرِّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾<sup>(٧)</sup>.
- ﴿أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾<sup>(٨)</sup>.

وفي تفسيره لهذه الآية يقول ﷺ: (إذا كانت الأحكام والشرع الحقة نازلةً من عند الله تعالى لم يكن وراءها حكم الحق لا يكون دونها إلا حكم الجاهلية الناشئة عن اتباع الموى، فهولاء الذين يتولون عن الحكم الحق ماذا يريدون بتوليهم وليس هناك إلا حكم الجاهلية؟ أفحكم الجاهلية يبغون والحال أنه ليس أحد أحسن حكماً من الله لهؤلاء المدعين الإيمان، في الآية استفهامٌ توبينه ﴿أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ استفهامٌ استنكاري، أي لا أحد أحسن حكماً من الله تعالى، وإنما يتبع الحكم لحسنه<sup>(٩)</sup>.

عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: (الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهلية، فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية)<sup>(١٠)</sup>.

### الجاهلية في نهج البلاغة:

هناك جملةٌ من النصوص الشريفة الواردة عن أمير المؤمنين علي بن أبي

طالبٍ عليه السلام وعن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام تصور الحالة الجاهلية التي كانت سائدةً بين العرب، النصوص كثيرةً منها ما يقول عليه السلام في خطبته له يقرر فضيلة الرسول الأكرم صلوات الله عليه:

- (بعثتكم صلوات الله عليه والناس ضلالاً في حيرة، وحاطبون في فتنة، وقد استهوتهم الأهواء واستزلتهم الكبراء واستخفتهم الجاهليّة الجهلاء، حيari في زلزالٍ من الأمر وبلاءٍ من الجهل، فبالغ صلوات الله عليه في النصيحة ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة)<sup>(11)</sup>.

أراد في هذه الخطبة بيان بعض فضائل النبي صلوات الله عليه وجهاده وما أتعب نفسه الشريفة من أجله، فعندما بعث الله نبيه محمدًا صلوات الله عليه إلى الناس كانوا في الاحرافِ وتباهٍ لا يهتدون السبيل، ولا يدركون ما ينفع ما يغيّر، لقد جذبتم الأهواء إليها فكل يمشي على مقتضى هواه وما يرغب فيه وإن كان فيه فساد الأوضاع واضطراب الأحوال، فالكبار والجاهليّة المظلمة القاتمة قد أخذتهم في الفساد والغارات والظلم والاعتداء، فالجهل هو سبب بلائهم ومصائبهم<sup>(12)</sup>.

كما قال عليه السلام: (أضاءت به صلوات الله عليه البلاد بعد الضلال المظلمة والجهالة الغالية والجفوة الجافية، والناس يستحلّون الخرimes ويستدلّون الحكيم، يحيون على فترٍ ويموتون على كفرٍ)<sup>(13)</sup>.

### مظاهر الجاهلية قبل الإسلام:

لاشك أن الجاهلية لم تكن مقتصرةً على منطقة البعثة بل كانت الجاهلية مسيطرةً على أكثر مناطق العالم (الروم - الفرس - الهند - الصين...) ولكن

التركيز على الجاهلية في هذه المنطقة باعتبارها (منطقة البعثة).

**أ- الوضع الديني:**

**- الشرك في الربوبية:**

كان الدين السائد عند العرب هو (الشرك بالله تعالى، فهم وإن كانوا موحدين في مسألة الخالقية ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّه﴾ ولكنهم مشركون في المراحل الأخرى للتوحيد كما في أمر الربوبية وتدبير العالم<sup>(١٤)</sup>.

**- عبادة الأصنام:**

العبادة التي كانوا يعبدونها هي الأصنام زاعمين أنها تقربهم من الله زلفى.

وغيرها من العقائد المنحرفة كما في خلق الملائكة إناثاً.

**ب- الانهيار الخلقي:**

**- الفواحش والزنا:**

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما (إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما ظهر من الزنا ويقولون إنه لؤم ويستحلون ما خفي ويقولون لا بأس)، ولتحريم القسمين يشير قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وكانوا يكرهون إماءهم على الفاحشة والزنا وعلى التكسب من حلاله.

**- تعاطي الخمر والميسر:**

كان رأيُّ بين العرب تناول الخمر منذ زمنٍ بعيدٍ، وقد بلغ شغفهم به حتى جعلوه أحد الأطبيين، لذا حين أراد الإسلام أن يشرع تحريم الخمر

شرعه بالتدريج، مع أن النبي ﷺ قد حرمَه قبل الهجرة ولكنه لم يتحقق إلا بعد سنواتٍ من هجرته إلى المدينة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾<sup>(١٥)</sup>.

#### - وأد البنات:

كانوا يئدون بناتهم لأعذارٍ واهيةٍ وختلفةٍ، فتارةً يتذرعون بخشية الأخلاق والأخرى بحججة الاجتناب عن العار، وقد حكى القرآن عنهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأَثْنَيْنِ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الآية تصور أحد هم حينما يبشر بولادة أنسٍ له فإنه يتغير إلى السواد ويظهر عليه الحزن والكراهية. وإلى غيرها من المظاهر الخلقية الساقطة والمنحطة ل الإنسانية الإنسان في الجاهلية.

#### ج- التمزق الاجتماعي:

كان يعيش أغلبهم عيشة القبائل والعشائر والبداوة، فحساسة العيش ودناءة المعيشة بحيث يعيشون على الغزوات وشن الغارات واحتطاف كل ما في أيدي الآخرين من متع أو عرضٍ، فلا أمن ولا أمانة ولا سلم ولا سلام، والأمر إلى من غالب والملك لمن وضع عليه يده، وكانت العرب يومئذٍ تجاور جنوبها الحبشة وهي نصرانية، وفي مغربها إمبراطورية الروم وهي نصرانية، وفي شمالها الفرس وهم المجوس وغير ذلك، وفي أرضهم طوائف من اليهود، هذا كله هو الذي أوجد لهم اجتماعاً همجياً بدويًا فيه أخلاطاً من رسوم اليهود والنصرانية والمجوسية وهم سكارى جهالهم.

ويعبر صاحب الميزان<sup>(١٦)</sup>: (بأن الفضيلة بينهم سفك الدماء والحمية الجاهلية والكبير والغرور واتباع الظالمين، وهضم حقوق المظلومين، والتعادي وتعاطي الربا).

هذه بعض ملامح ومظاهر الحياة الجاهلية التي اصطبغت بالدين ولوثت روح الإنسان، وأسست لها كياناً هاوياً، تلك الجاهلية الأولى، لكن أصولها وجذورها في يومنا هذا باقيةٌ في كل مساحةٍ وبقعةٍ لا تسودها ولا تحكمها البعثة الحمدية الهدادية التي أُرسِلتْ رحمةً للعالمين ومنقذةً لها، لأن الجاهلية تبقى تصارع عقول الناس وأرواحهم وحياتهم.

سنتناول في القسم الثاني (دعوة النبي ﷺ في مكة).

## المواهش:

- (١) السيرة النبوية: ٢٣، السيد سامي البدرى.
- (٢) تاريخ ما قبل البعثة النبوية المشرفة: ١٠، الشيخ فاضل المالكي.
- (٣) بين الجاهلية والإسلام: ١٩، الشيخ محمد مهدي شمس الدين.
- (٤) تفسير الميزان: ٤، ١٥٦، العالمة الطباطبائى رحمه الله.
- (٥) آل عمران: ١٥٤.
- (٦) الفتح: ٢٦.
- (٧) الأحزاب: ٣٣.
- (٨) المائدة: ٥٠.
- (٩) تفسير الميزان: ٦، ٣٦٤، العالمة الطباطبائى رحمه الله.
- (١٠) نور الثقلين: ١: ٦٤٠.
- (١١) نهج البلاغة، خطبة (٩٥) في وصفه فضائل الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه.
- (١٢) شرح نهج البلاغة: ٢: ١٣٦، السيد عباس الموسوى.
- (١٣) نهج البلاغة، خطبة (١٥١) في تحذيره الناس من الفتنة.
- (١٤) مفاهيم القرآن: ٧: ٢٧، الشيخ جعفر السبعاني.
- (١٥) المائدة: ٩١.
- (١٦) تفسير الميزان: ٤، ١٥٧، العالمة الطباطبائى رحمه الله.

## الشخصية التغييرية للرسول المكرم ﷺ

السيد ياسين السيد قاسم الموسوي

بسم الله الرحمن الرحيم، بارئ الخلائق أجمعين، مغيرة أحوال جميع المخلوقين، إنَّ أي تغيير أو تبديل يسعى له أي أحدٍ لابد أن يراعي فيه كل الحيثيات التي لها مدخلةٌ في عملية التغيير<sup>(١)</sup> والإصلاح.

### الأسس النظرية:

والـ**التغيير**: هو عملية قلب أو تبديل واقعٍ معينٍ لواقعٍ آخر مخالفٍ له، سواءً كان التحول كلياً أم جزئياً، ويقوم التغيير بثلاثة عناصر وهي: (المغيّر، والمغيّر، والمغيّر فيه)، وسننشرحها بالتفصيل فيما يلي:

١- **المغيّر**: وهي المجموعة أو الشخص الذي يحمل على عاتقه الحركة التغييرية وله تأثيرٌ واسعٌ في نجاح العملية وعدمها. وينبغي أن يتوفّر على صفاتٍ خاصةٍ ومنها:

١- **القوة والتميز - ولو نسبياً** - في الشخصية: وذلك في جوانب متعددةٍ فلو كانت شخصية المصلح هزلةً وضعيفةً فلا يعقل أن يأثر في الآخرين، بل هو بحاجةٍ إلى تغيير إثباتيٍ للصعود (وفقد الشيء لا يعطيه).

٢- **التوفر العلمي**: الذي يؤهله أن يكون مغيّراً وقيادياً مصلحاً.

٣- أن يكون على اعتقادٍ جازم بصحة ما يدعوه له ومحاول التغيير إليه؛ والذي يحتم عليه أن يكون قدوةً عمليةً بمعتقداته النظري، وإلا فلن يؤثّر في

الآخرين ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

٤- التخلُّق بالأخلاق الفاضلة: التي يمكنه من خلالها جذب واحتواء الآخرين والنفوذ في قلوبهم بها، والذي يسهل عملية التغيير جهداً ووقتاً.

٥- أن يتبع الأسلوب المقربة والمحببة: فالأسلوب جزءٌ من الفكرة وصورتها، ولكل مرحلةٍ من مراحل التغيير أسلوبها الخاص، ولكل مقامٍ أسلوبه الخاص به.

٦- أن تكون له سعةٌ حسنةٌ سابقةٌ على إقامته للإصلاح، والتي لها مدخليةٌ للحصول على درجةٍ عاليةٍ من القبول في الوسط التغييري.

بـ- **المغير**: (ما يقع عليه التغيير) فالمتغير لا بد له من شيءٍ يغيره ويصلحه، ويكون ذلك في أي قضيةٍ من القضايا المهمة التي منها: (الفكرية، العقائدية، الدينية، الاجتماعية، الاقتصادية...).

والتغيير نوعان:

- **تغييرٌ مؤقتٌ**: وهو تغيير المسار وتوجه العملية التغييرية كحالةٍ مؤقتةٍ تدوم بدوام أسبابها وظروفها، وب مجرد ارتفاع هذه الظروف أو اختلالها تعود الشخصية أو الفتاة إلى طبيعتها الأولى، أي ينتفي التغيير.

- **تغييرٌ جذري في العقلية**: وهو التغيير الجذري لا النسيي الذي يجعل العملية التغييرية طبيعةٌ مستجدةٌ و مختلفةٌ و فاعلةٌ في النفس و ملتصقةٌ بها، وهو المؤمل إنجازه في كل مهمةٍ تغييريةٍ ناجحةٍ.

و كل هذا خاضعٌ لقاعدةٍ عامةٍ أقرّها القرآن الكريم، ألا وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

جـ- **المغير** فيه: (وهو المكان الذي يقع التغيير فيه) وقد يكون شخصاً أو مجتمعاً -صغيراً أو كبيراً- أو أمةً من الأمم أو عالماً بأسره، وتحتليف قدرة نسبة التغيير ومقدراته من فئة لأخرى، وهذا راجعٌ لعدة أسبابٍ منها:

١- المستوى الفكري والثقافي، أي الأسس و المبنيات الفكرية لتلك الفئة.

٢- الطبيعة الفسيولوجية والبيولوجية لإنسان تلك الفئة.

٣- مدى الانفتاح والانغلاق الفكري والتقوّق الفئوي.

٤- العادات والتقاليد والأعراف.

٥- مدى تمسك هذه الفئة بما يراد تغييره.

#### الدراسة التطبيقية:

وهي إسقاط وتطبيق الكبري - وهي الأسس النظرية- آنفة الذكر على أكبر وأعظم عمليةٍ تغييريةٍ يمر عليها التاريخ البشري، وهي بزوغ نور الدعوة الإلهية الربانية على يد نبي الإسلام الأعظم النبي محمد ﷺ.

أ- **المغير**: هو المصلح العالمي، وهو أعظم مخلوق ظهر على صفحة الوجود، وهو منقذ البشرية ومحرّجها من الظلمات إلى النور، ولو تكلمنا ولو كتبنا فيه فإننا نعجز ولن نصل إلى حقيقته وما هي العظيمة ﷺ.

وخصائصه وصفاته عظيمة جداً، فمن سنته الباري الحكيم عزّ وجلّ أعظم وسامٍ أخلاقيٍّ و خلقيٍّ في الآية الكريمة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(٤)</sup>، فكلامنا عنه لا يؤثر شيئاً وإنما للاستزادة والبركة.

وإنه ﷺ نبي الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٥)</sup>، فكان رحيماً

لأقصى درجات الرحمة بأمته وأصحابه ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظًا لِّلْقَلْبِ  
لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾<sup>(٦)</sup>، ومن ذلك شواهد كثيرة:

- عنه ﷺ قال: (ما أؤذى نبيًّا مثلما أؤذيتُ)، ولكنه من رحمته وشفقته لم يدع على أمته - كما فعل الأنبياء السابقين عليهما السلام - بل كان يدعو لها كقوله ﷺ: (اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون)<sup>(٧)</sup>.

- إن ﷺ - كما ينقل المؤرخون - حينما حضرته الوفاة وفي حال نزع روحه الطاهرة قال ملك الموت (عزرايل عليه السلام): (شدّ علىي وخفف على أمتي)، ومثل هذا تشير له الآية الكريمة من رأفة ورحمة النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(٨)</sup>.

كانت شخصيته الفذة شخصيةً قويةً معروفةً باسم روتها وكمال أخلاقها وضبط أفعالها، ولو كان شخصيةً نكرةً لاغتالته قريش والمرشكين ولم يكن شيئاً مذكوراً وضاع دمه هدراً، وفيما لو كانت شخصيةً هامشيةً لَهُمْشته واستفزته وتركته كبقية المدعين زوراً وكذباً.

كان ﷺ ذو سعةٍ حسنةٍ شائعةٍ قبل بعثته، ولقب بـ «عدة ألقابٍ صالحةٍ» منها: الصادق والأمين.

كان اعتقاده بما أرسِلَ به - وهي الرسالة الإلهية المتمثلة في الإسلام العظيم - اعتقاداً جازماً قوياً ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي﴾<sup>(٩)</sup>، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسَبِّحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(١٠)</sup>، وهذا مما جعله لا يأبه بما قدّم له من ترغيبٍ أو ترهيبٍ، بل

صبر على الظلم والاضطهاد والأذى من قريش والمشركين، ورفض كل العروض التي عُرِضَت عليه حتى قال لأبي طالب<sup>عليه السلام</sup>: (يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالِي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)، وصبر مع أهل بيته المؤمنين الأوائل ثلاث سنواتٍ في شعب أبي طالب لما (حضرت قريش رسول الله<sup>صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> وأهل بيته<sup>عليهم السلام</sup> من بني هاشم وبني المطلب في الشعب الذي يقال له شعب بني هاشم حتى أنفقوا كل ما لديهم وصاروا إلى حد الفاقة)<sup>(١)</sup>.

**بـ- المغِير:** (منتهى الجهل وأقصى التخلف على كل الأصعدة) فجاء النبي<sup>صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> وبَدَلَ الجهل المستشري في عروق الأمة بالعلم، والضلالة المتغلغل فيها بالهدى، والباطل المخض بالحق الصريح، والسبق العين بالصحيح القلب والقلب من فكرٍ، وعقائدٍ، وعاداتٍ وتقاليدٍ، وتنظيم الأمة والمجتمع ووو.

**جـ- المغِير فيه:** هو المجتمع الجاهلي - وخصوصاً المكي - المتحجر المتخلّف الذي كان متصفًا بصفاتٍ ومتمسّكاً بتقاليد وأعرافٍ تُنبئ عن مدى التخلف فيه على كل الأصعدة وفي جميع الجوانب:

- العقائدية: من عبادة الأوثان والأصنام ووو.

- العادات والتقاليد: المتخضة من الجهل المدقع، من وأد البنات وانتشار أنواع الزيجات الخاطئة والفاحشة.

- الاقتصادية: من رواج عملية الربا والاحتكار الفاحش اللذان نتج عنهما ومثيلاتها الطبقية الاجتماعية والرقيق وو.

- الاجتماعية: من انتشار التعصب القبلي الذي أدى إلى حروبٍ طاحنةٍ،

والتفكير الاجتماعي الناشئ من التفكك الأسري الناجمة من العبث الجنسي والانحلال الخلقي والأخلاقي.

من كل ما تقدم ندرك من هذه الخصال التي توفر عليها ذلك المجتمع الجاهلي أنه كان من الصعب جداً أن تُغيّر لو لا وجود شخصية كشخصية النبي الأعظم ﷺ التي كان التسديد الرباني ملزماً لها، فالأساليب التي اتبعها ﷺ في بداية بعثته المباركة كانت حكيمهً وذكيرهً، ولا غرابة فإنه أحكم وأعلم من وُجدَ على سطح الأرض، ومنها جعل الدعوة على مراحلتين ولكل مرحلةٍ نظمها الخاص:

أ- الدعوة السرية: والتي دامت ثلاث سنين وتنبع عن حنكةٍ كبيرةٍ، وتحقق فيها:

١- بناء الخلية الإيمانية الأولى التي عُدّت القاعدة الأولى لبناء المجتمع الإسلامي آنذاك.

٢- إنذار الأقربين والمقربين لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾<sup>(١٢)</sup>.

٣- التزام الكتمان قبل أن يصدع بالدعوة وذلك لضمان بقاء الإسلام بالعدد الذي كان يزداد شيئاً فشيئاً.

٤- ترسیخ الإيمان الصادق وتعاليم الرسالة لدى الخُلُص الأوائل.

ب- الدعوة الجهرية: عندما جاء الأمر الإلهي ﴿فَاصْدِعْ بِمَا تُؤْمِنُ وَأَعْرِضْ

عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(١٣)</sup>، امتنى ﷺ لأمر الله فتحرك صادعاً بشقةٍ مطلقةٍ وعزيمةٍ راسخةٍ متحدياً كل قوى الشر والشرك، وكابد هو وأصحابه المؤمنين الخُلُص إثر المواجهة العنيفة كل ألوان العذاب وصنوف المعاناة إلى أن فتح الله

عليهم وانفرجت أمرهم وهاجروا المجرتين، ثم ثبت كيان الأمة في يشرب وشيدت المدينة المنورة، حتى أصبحت دولةً قويةً رصينةً راسيةً متजذرةً لا تهتزّها الزلازل ولا تقلعها العواصف بقيادة الرسول صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ القيادة الشاملة الكاملة التامة التي كانت تدير الأمور بيد اللطف وتنظر إليها بعين الله سبحانه.

#### الخاتمة:

يجب أن يعي -في هذا العصر- كل مغّير وكل مصلح لاسيما العلماء وطلبة العلوم الدينية في ظل هذه الأجواء والظروف الحرجية والأوضاع الضاغطة التي عصفت وتعصف بالمجتمع الإسلامي، وتحت نير هذه التحديات الكبيرة والمتعددة والمتغيرة التي يرزح المسلمون تحتها، والتي تهدّد نسيجه وكيانه وقيمه، وانطلاقاً من المسؤولية الإلهية، وأداءً للتکلیف الشرعي، لابد أن ينبری العلماء مع ثلاثة خلصيةٍ من المؤمنين لبلورة فکر الأمة وصياغة نهجها وحفظ خطها على طريق الله سبحانه.

وينبغي أن يحملوا الرسالة بكل أمانةٍ وصدقٍ مع هم المسؤولية في تبليغها على أتم الوجوه وفي الذود عن حياض الإسلام وحفظ بيضته والتركيز على أطر القيم التربوية والأخلاقية الإسلامية الأصيلة وهدي التعاليم العقائدية والرسالية.

ويجب الوعي أكثر من أي وقتٍ مضى لنكتةٍ أساسيةٍ، وهي أننا نعيش اليوم ونشهد عهداً جديداً متظوراً متجدداً في شتى الأصعدة وأهمها الثقافي والاجتماعي، وهما اللذان تنصب عليهما عملية التغيير بالدرجة الأولى،

فحرى بنا في خضم هذه التغيرات المتسارعة في عجلة الزمن أن نعي الواقع الموضوعي بكل جوانبه وأبعاده وأنّه لم يعد هو نفسه واقع ما قبل ٢٠ سنة أو أقل أيضاً، ومن الطبيعي فإننا لا يمكن أن ننظر للمتغيرات الموضوعية والقيمية الحادثة عبر الأجيال ضمن سياق واحدٍ، مع الالتفات إلى أن هذه المتغيرات بعضها يتسم بالسلبية وبعضها لا يمثل حالة إيجابية بناءً، فنحارب الأول ونستفيده ونستثمر الثاني.

وكل ذلك يعتمد على التشخيص الدقيق القائم على الشمولية فيأخذ الصورة الواقعية للمجتمع المراد خوض العملية الإنمائية فيه.

هذا لا يُنال إلا بعون الله وتوفيقه وتسديده، فنسأّل الله تعالى أن يوفقنا ويسددنا وجميع المؤمنين إلى كل ما فيه خير وصلاح الدين والأمة والمجتمع ونتضرّع إليه بأن يوفقنا للعلم والعمل الصالح، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وأن يجعلنا من المهددين لإمام زماننا أرواحنا فداء ولدولته العظمى ثم من أنصاره وأعوانه والمستشهدين بين يديه وتحت لوائه.  
والحمد لله أولاً وأخيراً.

## المواهش:

- (١) وإنْ نَعْبَرَ بالتغيير فإننا نقصد به خصوص التغيير على نحو الأفضل ونحو الأحسن (تصاعدي) وليس أي تغيير والذي منه الهبوطي والصعودي .  
(٢) البقرة : ٤٤ .  
(٣) الرعد : ١١ .  
(٤) القلم : ٤ .  
(٥) الأنبياء : ١٠٧ .  
(٦) آل عمران : ١٥٩ .

(٧) محمد ﷺ في القرآن : ٦٥-٦٠.

(٨) التوبة : ١٢٨.

(٩) الأعما : ٥٧.

(١٠) يوسف : ١٠٨.

(١١) تاريخ العقوبي ص : ٣١.

(١٢) الشعرا : ٢١٤.

(١٣) الحجر : ٩٤.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ

حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ

سورة الرعد: ١١

## مَعَالِمُ الدِّسْتُورِ وَلَطْوِطَهُ الْهَامَةُ

عبد الله الدقاد

وطئة:

كنت قد كتبت بحثاً في غرة ربيع الأول من عام ١٤١٩ هـ حول الدستور، وكان الغرض كتابة كتاب يتناول الدستور والدستير في العالم في عدة فصول، ولكن حالت الظروف دون كتابة بقية الفصول بعد إتمام الفصل الأول وهو البحث الماثل بين يديك.

يتطرق هذا البحث إلى أهم المعلومات حول الدستور مثل تعريفه، أنسسه، تاريخه، أنواعه ... من دون المناقشة في هذه المعلومات التي عادةً ما تذكرها الكتب الغنية بذكر المفاهيم السياسية، وكان البناء على أن أذكر الرؤية الإسلامية لكل التفاصيل المذكورة ولكن لم يحالفي التوفيق، ولعل بعض المؤمنين يوفق لكتابة مثل هذه البحوث. إذن فالبحث الماثل بين يديك يسلط الضوء على أهم معالم الدستور بشكل عامٌ، وقد آثرت إبقاءه على ما هو عليه من باب الأمانة العلمية لأنه يعكس جهداً علمياً في حقبةٍ معينةٍ. أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع به إخوانني المؤمنين، وأن يجعله في سجلٍ أعمالي وميزان حسناتي يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ.

معالم الدستور:

سوف نستعرض أهم معالم الدستور ومقوماته وتاريخه من دون إيراد

اللاحظات عليها مكتفين بسرد ملامحه على هيئة نقاطٍ.

## أولاً: تعريف الدستور:

### ١ - تعريف الدستور في اللغة:

(الدستور كلمةٌ فارسية الأصل<sup>(١)</sup>، دخلت اللغة التركية ثم شاعت في اللغة العربية، وأصبحت لها عدة معانٍ تطورت مع الزمن)<sup>(٢)</sup> ، والدستور جمع دساتير (فارسية)، وهو القاعدة التي يُعملُ بمقتضها، كما يطلق الدستور على الوزير والإجازة والدفتر الذي تُجْمَعُ فيه قوانين الملك وضوابطه أو تُكْتَبُ فيه أسماء الجندي ومرتباتهم<sup>(٣)</sup>، فالدستور (هو القاعدة التي يُعملُ بها، الوزير والدفتر الذي تُجْمَعُ فيه قوانين المملكة)<sup>(٤)</sup>.

- **ملاحظة:** (كانت الوثائق الخاصة بنظام الحكم في الدول العربية في ظل الحكم العثماني يُطلق عليها القانون الأساسي أو اللائحة التأسيسية أو القانون النظمي، ثم أطلق عليها بعد الاستقلال لفظ دستور.

والسميات القدية أقرب إلى العربية من لفظ دستور، ومع ذلك فإن الإجماع منعقدٌ على اختيار لفظ (دستور) لما لهذا الاصطلاح من معنى القدسية والسمو، فضلاً عن الكلمة الواحدة في المصطلحات تفضل الكلمتين<sup>(٥)</sup>.

### ٢ - تعريف الدستور اصطلاحاً:

يُطلق الدستور في العرف السياسي في عصرنا هذا على النظام الحكومي للأمة وعلى الأخص النظام الذي يخول الأمة حق سن القوانين ومراقبة السلطة التنفيذية<sup>(٦)</sup>.

فالدستور (أهم وثيقة في الحياة السياسية للمجتمع وفي بناء الدولة، وهو مجموع القواعد القانونية التي تحدد نظام الحكم وشكل الحكم في الدولة).<sup>(٧)</sup>

فإذن (الدستور يوجد على قمة النظام القانوني في الدولة، وتعتبر قواعده أعلى القواعد القانونية وأسماها داخل الدولة، ومن ثم فإن البعض يُسمى الدستور (قانون القوانين). والدستور هو الذي يبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها، وينظم السلطة العامة ويحدد العلاقة بين أجهزتها المختلفة ويوضح الحدود لكل منها، ويقرر حقوق الأفراد وينص على الوسائل الأساسية لضمان هذه الحقوق وأعمالها. والدستور إذ يضع الحدود لتصرفات أجهزة الدولة ويرسم الإجراءات التي يتبعن سلوكها يؤدي إلى تقييد ممارسة السلطة وجعلها في الإطار الذي يبيّنه ذلك الدستور).<sup>(٨)</sup>

## ثانياً: مركزية الدستور:

للدستور شأنٌ ليس لغيره من القوانين، وهو ما يُنعتُ سُمو الدستور أو علوه أو بمركزه الممتاز بالنسبة للقوانين العادية حتى يُصبح في مأمنٍ من خطر الأهواء والفوارات الواقية، لذلك يتذرع أن ينال بالتعديل أو التخيير إلا عندما تدعوه أقصى الضرورات، وفي حالة تعارض نصوصه مع القوانين العادية تكون الغلبة للدستور، فمن ثم لا يصدر قانونٌ على خلاف حكم الدستور.<sup>(٩)</sup>

من هنا تتضح (ضرورة مطابقة القوانين التي تصدرها السلطة لنصوص الدستور المكتوب نظراً لعلو القانون الدستوري على غيره من القوانين

وسوه على كل السلطات في الدولة، إذ أنه هو الذي يحدد شكل الدولة ويرسم قواعد الحكم فيها وينظم السلطات العامة ويضع الضمانات الأساسية لحقوق الأفراد، فمن ثم، إن أي قانونٍ يصدر على خلاف حكم هذا الدستور يعتبر تجريعاً غير دستوري، ومن ثم يجب على القضاء الامتناع عن تطبيقه<sup>(١٠)</sup>.

والخلاصة إن الدستور هو قمة النظام القانوني للدولة، ويترتب على ذلك أن جميع الأحكام التي تتفرع عليه وتأتي تحته (القوانين العادية) يجب أن لا تخرج على أحکامه وتأتي بما يخالفه، وبذلك تكون أحكام الدستور وقوانينه ملزمةً للجهاز التشريعي في الدولة كما أنها ملزمةً للجهازين القضائي والتنفيذي أيضاً.

ويتفرع على ذلك ما يعرف بدستورية القوانين، أي ضرورة مطابقة تشريعات الجهاز التشريعي (البرلمان) أو إجراءات السلطة التنفيذية (مجلس الوزراء) أو تطبيقات السلطة القضائية في الواقع المختلفة لقوانين الدستور وأصوله العامة.

(إن وجود دستور معين أيًّا كان نظام الحكم في الدولة يجعل ممارسة السلطة مقيدةً غير مطلقةٍ نتيجة التزام القائمين على السلطة بأحكام ذلك الدستور، فإذا خرج القائمون على السلطة على تلك الأحكام انقلب سلطانهم من سلطان قانونيٍّ إلى سلطان فعليٍّ يستند إلى القوة المادية، وبذلك تخرج الدولة عن أن تكون دولةً قانونيةً)<sup>(١١)</sup>.

### ثالثاً: بعهدة من تطبيق الدستور؟ وكيف نحوال دون خرق قوانينه؟

(يجعل الدستور الحكم في يد هيئةٍ من المواطنين تتوافق فيهم كفاءاتٌ خاصةٌ لهذه المهمة وهي الحكومة، وأخضع (الدستور) الحكومة لرقابة الرأي العام الذي يمثله أعضاء الهيئة التشريعية، وتُعرَفُ بالبرلمان أو المجلس الوطني أو مجلس الأمة).<sup>(١٢)</sup>

أي أن السلطة التنفيذية (الحكومة) هي التي تتولى إجراء القوانين، وهي التي تلتزم بتطبيق الدستور في ميدان العمل، فمجلس الوزراء هو الذي ينبغي أن يراعي مقررات الدستور عند رسمه للخطط والمشاريع، ولكن ما الذي يضمن لنا عدم تجاوز الحكومة للقوانين الدستورية؟ حيث إن أصحاب القوة وذوي الاقتدار لا يبالون بالقانون مطلقاً، وهذا يلزم أن يكون ثمة علاج آخر بالإضافة إلى القانون، وهذا فكر المصلحون والمطلعون على القضايا الاجتماعية في الحصول على هذا العلاج طيلة العهود المنصرمة، فوجدوا أن ثمة أمرين يجب توفيرهما للحيلولة دون انتهاك القانون وخرقه وهما:

**أولاً:** الرقابة الشعبية وحق إشراف الشعب ومثليه على سير الأمور (البرلمان).

**ثانياً:** وجود الجهاز القضائي المستقل القوي وال قادر على منع أي مخالفٍ للقانون دون أي تهاونٍ مع كل مخالفٍ للقانون أيًّا كان، وتقديمه لينال جزائه العادل، والحرص على حسن تنفيذ القانون. وهذا ما أقره الإسلام وأكد ضرورته، فورد التأكيد على تطبيق القانون، وكذلك التأكيد على الحزم والصعبة والقوة من أجل تنفيذ القانون)<sup>(١٣)</sup>، حيث إن الغرض من إقامة

## الدستور أمران:

- ١- تخليص الأعمال العامة من سلطة الأفراد التي كثيرةً ما عبّرت بصالح الأمة ووجهت خيرات الشعوب نحو مصالحها الخاصة من دون نظرٍ إلى ما يعقب ذلك من خطرٍ على كيان الأمة وجودها.
- ٢- ضمان حقوق الأفراد إزاء أصحاب السلطة، فإنهم كثيرةً ما ساموا الناس إرضاءً لعواطف الأثرة والتعالي في نفوسهم، وهذا ما يُعبر عنه بالحقوق الشخصية<sup>(١٤)</sup>.

## رابعاً: تاريخ الدستور:

تكونت الملك على نظام استبداديٌ بحتٌ، فقد كان رئيس القبيلة أو الملك هو المتصرف المطلق في قبيلته من دون أن يلقى أي اعتراضٍ، إلا أن عاطفة الحرية كانت مغروسةً في فطرة الإنسان مما دفعت بالأمم إلى التحرك للخروج من هذا المأذق الاستبدادي، فكان اليونانيون أسبق الأمم إلى طرق باب الحرية بما أقاموه من الجمهوريات وما نصبوه من المجالس النيابية، ثم تَلَتْهُمْ الأمة الرومانية، كل هذا كان قبل المسيح بقرونٍ كثيرةٍ، ولكن سلطة الأمة لم تكن حاصلةً في كل تلك الم هيئات على جميع حقوقها، بل كانت هذه الجمهوريات والمجالس النيابية مصبوغةً بصبغة سلطة الخاصة فلم يكن لعامة الشعب نصيبٍ منها.

فلما جاء الإسلام في القرن السابع الميلادي، حول الأمة التي ألفها جميع حقوقها، بل جعل الناس جميعاً في مستوىً واحداً من الإخاء، ونادي كتابه في الناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَرَّرٍ وَأَنْتُمْ شَعُوبٌ وَقَبَائِلٌ﴾

لِتَعْرِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاءُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ<sup>(١٥)</sup>، إلا أن واقع المسلمين للأسف الشديد لم يشهد تحسناً نظراً لاستيلاء بعض التجاريين على السلطة وإحکام قبضهم عليها.

ظل العالم كله على هذا الحال حتى هب بعض أشراف الإنجليز وقادتهم وحملوا الملك وليم الأول في سنة ١٠٦٦ على التوقيع على عهده، إلا أنه أهمل حتى ولی الحكم الملك جون فأوصل الاستبداد إلى أقصى غایاته، فأجتمع أشراف المملكة على محاربته، فاضطر لإعلان احترامه للعهد السابق. وهكذا مرت أحداثٌ حتى استقر في إنجلترا دستورها في القرن السابع عشر<sup>(١٦)</sup>.

أما الدستور الأمريكي فهو يمثل الحلقة الأولى في تاريخ سلسلة الدساتير المكتوبة، فقد (وضع هناك في سنة ١٧٧٧ وصدر في سنة ١٧٨٩ ولا يزال معمولاً به حتى الآن مع بعض تعديلاتٍ أدخلت عليه، ولكنها لا تمثل جوهره، وقد وضع هذا الدستور قبل نشأة النظام البرلناني العصري في العالم، ذلك أن النظام البرلناني في صورته الراهنة لم تتأصل قواعده ولم تستقر أوضاعه الأساسية في بريطانيا وفي فرنسا وبليجيكا إلا بعد سنة ١٨٣٠، أي بعد وضع الدستور الأمريكي بخمسين عاماً تقريباً<sup>(١٧)</sup> ، وبعد أن تحولت الولايات المتحدة الأمريكية من مستعمراتٍ بريطانيةٍ إلى دولةٍ مستقلةٍ بدعائم دستورها تلتها فرنسا بعد أن تحولت في الملكية إلى الجمهورية، حيث وضعت دستورها عام ١٧٩١<sup>(١٨)</sup> الذي أعقبته بعض الثورات<sup>(١٩)</sup>.

كانت الأمم الأوروبية قد تأثرت بالثورة الفرنسية، فكان القرن الثامن عشر كله مسرحاً لحركاتٍ اجتماعيةٍ خطيرةٍ، فلم تبق أمةٌ إلا وأخذت من الدستور خطأً حتى أن سلاطين العثمانيين اضطروا لإعلان ميلهم للنظمات

الحرة، فنشر السلطان عبد الحميد الأول سنة ١٩٣٥ عهداً سماه بالتنظيمات الخيرية فلم يمض على هذا الإعلان أربعون سنة حتى قام بعض رجال السلطة بثورة عزلوا السلطان عبد العزيز ونصبوا مكانه عبد الحميد الثاني على شرط إعطاء الحكومة الصبغة الدستورية<sup>(٢٠)</sup>.

#### خامساً: أسس الدستور:

الدستور نظام حكومي يقتضي خمسة أصول رئيسية:

١- سيادة سلطة الأمة على كل سلطة باعتبارها مصدر كل قوة، وهذا تنص الفقرة من المادة (١) من دستور دولة البحرين على أن السيادة في النظام للشعب مصدر السلطات جميعاً<sup>(٢١)</sup>.

٢- تقسيم الحكومة إلى ثلاث سلطات، أولاهما تنفيذية وهي موكولة للحكومة (مجلس الوزراء)، وثانيتها تشريعية وهي موكولة مجلس تنتخبه الأمة أو مجلسين، وثالثتها السلطة القضائية التي تقوم بالفصل بين الخصومات، لهذا فإن الباب الرابع من دستور دولة البحرين قد خصص للحديث عن السلطات ووظائفها<sup>(٢٢)</sup>.

٣- فصل هذه السلطات بعضها عن بعض بحيث لا تتدخل سلطة في شؤون السلطة الأخرى، ولعل أول تطبيق عمليًّا لمبدأ توزيع السلطة على جهات متعددةٍ وعدم تركيزها لدى جهة واحدةٍ كان في دستور (كرومويل) الذي ميز بين السلطات الثلاث، وكان حرصه على الفصل ليس إلا نوعاً من رد الفعل ضد استبداد الملوك، ولذلك لما سقط (كرومويل) وعادت الملكية ألغى الدستور الجمهوري وعدل عن نظام الفصل بين السلطات.

أما المحاولة النظرية الأولى للفصل بين السلطات فقط كانت في إنجلترا أيضاً على يد (لوك) في كتابه (الحكومة المدنية)، إلا أنه لم يقم بناء النظرية بشكل كامل، بل كان يهدف إلى الوقوف بوجه استياد الملوك ويفيد سلطتهم، أما المفكر الفرنسي (مونتسكيو) فقد أقام نظرية الفصل على نحوٍ منهجيٍّ وأرسى أصولها ودافع عنها<sup>(٢٣)</sup>، ولهذا يعد (مونتسكيو) أول من دعا إلى الفصل بين السلطات حيث جاء ذلك في كتابه (روح القوانين) ١٧٤٨م.

وقد كان المبرر العلمي للفصل بين السلطات هو محاولةً ألا تفرد جهةٌ من رجال الحكم بالسلطة، بل تكون هناك حالة توزيعٍ من ناحيةٍ، وحالة رقابيةٍ متبادلةٍ من ناحيةٍ ثانيةٍ<sup>(٢٤)</sup>، لهذا جاء في الفقرة (أ) من المادة (٣٢) من الباب الرابع في دستور دولة البحرين ما يلي: (يقوم نظام الحكم على أساس فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مع تعاؤنها وفقاً لأحكام هذا الدستور، ولا يجوز لأيٍ من السلطات الثلاث التنازل لغيرها عن كل أو بعض اختصاصها المنصوص عليه في هذا الدستور)<sup>(٢٥)</sup>.

**ملاحظة:** تلتزم جميع الحكومات الرئاسية بمبدأ الفصل بين السلطات بينما لا تلتزم به الحكومات البرلمانية، فالحكومات تنقسم من حيث العلاقة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية إلى شكلين:

أ- حكوماتٍ رئاسيةٍ حيث يمتنع فيها على السلطة التنفيذية والأشخاص المسؤولين عنها المشاركة في أجهزة السلطة التشريعية، ونموذج ذلك حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، فرئيس الجمهورية والوزراء لا يمكن أن يكونوا أعضاءً في المجلس التشريعي.

ب- حكوماتٍ برلمانيةٍ، وفيها لا يمتنع على أعضاء المجلس التشريعي أن

يشاركون في المسؤوليات التنفيذية، بل ينبغي أن يكون رجال السلطة التنفيذية أعضاءً في السلطة التشريعية، فموجز ذلك فرنسا وألمانيا وبريطانيا، لكن عدم التزام الحكومات البرلمانية بمذهب فصل السلطات لا يغير من الواقع العملي، حيث إنها تقسم هيئاتها إلى هيئاتٍ لكلٍ منها حدودها ومسؤولياتها المشخصة، إلا أنَّ رجال هذه الهيئات الثلاث قد يتداخلون فيشتراك شخصٌ واحدٌ في الهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية معًا.<sup>(٢٦)</sup>

أما دستور دولة البحرين فقد نصَّ على أنَّ الأمير يتولى السلطة التنفيذية والتشريعية معًا في آنٍ واحدٍ!!! فقد جاء في الفقرة (ب) من المادة (٣٣) من الدستور ما يلي: (السلطة التشريعية يتولاها الأمير والمجلس الوطني وفقاً للدستور، ويتوالى السلطة التنفيذية مع مجلس الوزراء والوزراء، وباسمه تصدر أحكام السلطة القضائية، وذلك كله وفقاً لأحكام الدستور)، مما يعني أنَّ الأمير له امتداداتٍ في السلطات الثلاث، أما الفقرة (ج) من المادة (٣٣) فقد نصَت على جواز تعين الوزراء من أعضاء المجلس الوطني في الفصل التشريعي الثاني للمجلس على أن لا يزيد عدد الوزراء الأعضاء في المجلس على أربعة عشر وزيراً، فقد جاء في الفقرة المذكورة ما يلي: (لا يجوز تعين الوزراء من أعضاء المجلس الوطني في الفصل التشريعي الأول، ويكون تعينهم من أعضاء المجلس الوطني أو من غيرهم ابتداءً من الفصل التشريعي الثاني. ويصبح الوزراء المعينون من خارج المجلس أعضاءً فيه بحكم مناصبهم، ولا يزيد عدد الوزراء جمِيعاً على أربعة عشر وزيراً).

٤- إقامة مجلسٍ نيابيٍّ أو مجلسين لتشريع القوانين ووضع الأنظمة التي تحتاج إليها الأمة، فقد نصَت المادة (٤٢) من دستور دولة البحرين على أنه

(لا يصدر قانونٌ إلا إذا أقره المجلس الوطني وصدق عليه الأمير).

٥- مسؤولية الوزارة و مباشرة السلطة التنفيذية إدارة البلاد، فقد جاء في الفقرة (أ) من المادة (٨٤) من دستور دولة البحرين أنه (يهيمن مجلس الوزراء على مصالح الدولة، ويرسم السياسة العامة للحكومة ويتابع تنفيذها ويشرف على سير العمل في الجهاز الحكومي)، أما لوقصرت الحكومة في أداء مهامتها تختم محاكمتها على ذلك أمام نواب الأمة حتى لا تصبح إدارة الأمة محض حبر على ورق وتذهب أتعابها من أجل إقامة الدستور أدرج الرياح، فقد نصت المادة (٦٧) من دستور دولة البحرين على أنه (لكل عضوٍ من أعضاء المجلس الوطني أن يوجه إلى رئيس مجلس الوزراء وإلى الوزراء استجواباتٍ عن الأمور الداخلة في اختصاصهم) ثم تعقب المادة بما يلي: (ويجوز أن يؤدي الاستجواب إلى طرح موضوع الثقة على المجلس)، كما أن الفقرة (ج) من المادة (٦٨) تنص على أنه (لا يكون سحب الثقة من الوزير إلا بأغلبية الأعضاء الذين يتالف منهم المجلس الوطني فيما عدا الوزراء).

والخلاصة أن دساتير دول العالم تقتضي أصولاً خمسة<sup>(٢٧)</sup> تمثل في سيادة الأمة وجود ثلاث سلطاتٍ مفصولةٍ مع وجود سلطةٍ تشريعيةٍ تمثل في مجلسٍ أو مجلسين بالإضافة إلى وجود سلطةٍ تنفيذيةٍ (حكومة) تتولى شؤون الوزارة.

#### سادساً: أنواع الدساتير:

١- الدستور المؤقت: (هو الدستور الذي تعمل في ظله الدولة لفترة

محدودة على سبيل التجربة والاختبار، أو الذي يوضع لمرحلة معينة من تاريخ الأمة على أمل إيجاد دستور دائم يُعمل به، غالباً ما صدرت الدساتير المؤقتة على أثر الانقلابات السياسية والعسكرية والتحولات الخطيرة في أنظمة الدول، وذلك حتى يتسعى للسلطة الحاكمة وضع دستور دائم تقره المؤسسات المختصة الصالحة ويكون متناسباً مع آمال الأمة وأمانها<sup>(٢٨)</sup>.

## ٢- الدستور الدائم: وهو على نحوين:

أ- دستور مكتوب: وهو (وثيقة يدون فيها التنظيم الدستوري للدولة، وتميز بالتفصيل والوضوح، إذ تقسم عادةً إلى أبوابٍ وفصوصٍ وبنودٍ، والدستور المكتوب يقابله الدستور العرفي)<sup>(٢٩)</sup>، كما أنَّ أغلب دساتير دول العالم مكتوبة.

ب- دستور عرفي: وهو (يقوم على ما اطرد عليه العرف وجرت عليه السوابق التقليدية في نظام الحكم خلال أعوامٍ أو أجيالٍ من تكوين الدولة، ومثال هذا الأخير الدستور الإنجليزي، إلا أنَّ هذا النوع من الدساتير التي تعتمد على العرف قد انكمش بسبب الحركات التحررية أو الشورات السياسية والاجتماعية التي مرت بها كثيرون من الدول منذ أواخر القرن الثامن عشر، كالدول التي نشأت فجأةً بعد أن قطعت صلاتها باضيها بسبب الاستقلال أو الانفصال، أو الدول التي استبدلت نظام الحكم فيها بنظام آخر ومثالها الدول الملكية التي تحولت إلى جمهوريات<sup>(٣٠)</sup>). والخلاصة إنَّ الدساتير العرفية هي تلك الدساتير المسطرة على الذي استقر في العمل فاكتسب مع الزمن قوة القانون على الرغم من كونها ليست مكتوبةً، حيث

إن العرف الدستوري له قوته حتى مع وجود الدستور المكتوب فيقوم بمهمة تفسير أو توضيح الغامض من النصوص المكتوبة<sup>(٣١)</sup>.

من هنا فإن الدساتير تنقسم من حيث سهولة أو صعوبة تعديلها إلى قسمين<sup>(٣٢)</sup>:

١- الدستور المرن: وهو الدستور الذي يمكن تعديل نصوصه بسهولة، حيث إن السلطة التشريعية العادلة (البرلمان) تمتلك صلاحياتٍ واسعة لتعديلها، والدستور البريطاني مثالٌ للدساتير المرن حيث إنه يستطيع البرلمان البريطاني تعديله مثلما يعدل أي قانون عادي.

٢- الدستور الجامد: وهو الدستور الذي يتطلب تعديله إجراءاتٍ أصعب وأشد من إجراءات تعديل القوانين العادلة، كاشترط اجتماع مجلس البرلمان جمِيعاً لإجراء التعديل، أو إجراء انتخاباتٍ جديدةٍ وتكون برلمان جديدٍ لتعديل الدستور، أو إجراء استفتاءٍ شعبيٍّ، أو اشتراط أن يتم التعديل بأغلبيةٍ عدديٍّ خاصةٍ في البرلمان كما هو الحال في دستور دولة البحرين، حيث تنص الفقرة(أ) من المادة(١٠٤) على أنه (يشرط لتعديل أي حكمٍ من أحكام هذا الدستور أن تتم الموافقة على التعديل بأغلبية ثلثي الأعضاء الذين يتتألف منهم المجلس وأن يصدق الأمير على التعديل)، وبذلك يكون دستور دولة البحرين جاماً نسبياً، والجمود ليس معناه جمودٌ مفاجئٌ للمبادئ وإنما يراد به صعوبة تعديل المواد نظراً لصعوبة إجراءات التعديل، ولكن قد يكون هناك جمودٌ مطلقٌ في بعض الدساتير كما إذا نص الدستور على عدم إمكانية تعديله خلال فترةٍ معينةٍ من تاريخ صدوره، أو على عدم جواز تعديل بعض أحكامه، وهذا ما تحقق فعلاً في دستور دولة البحرين،

حيث جاء في الفقرة (و) من المادة (١) ما يلي: (لا يُعدل هذا الدستور إلا جزئياً وبالطريقة المنصوص عليها فيه، كما لا يجوز اقتراح تعديله قبل مضي خمس سنوات على العمل به) كما أن الفقرة (ج) من المادة (١٠٤) قد نصت على أنْ (مبدأ الحكم الوراثي في البحرين لا يجوز اقتراح تعديله بأي حال من الأحوال، وكذلك مبادئ الحرية والمساواة المقررة في هذا الدستور، كما لا يجوز اقتراح تعديل المادة الثانية<sup>(٣٣)</sup> منه (بالإضافة إلى أن الفقرة (؟؟) من نفس المادة (١٠٤) تنص على أنْ (صلاحيات الأمير المبنية في هذا الدستور لا يجوز اقتراح تعديلها في فترة النيابة عنه)).

والخلاصة إن دستور دولة البحرين هو دستور جامد نسبياً نظراً لصعوبة الإجراءات التي ينبغي أن تتخذ لتعديل بعض مواده، كما أن بعض مواده جامدة جموداً مطلقاً نظراً لعدم إمكان إجراء التعديل عليها بنص المادة (١٠٤) الواردة في الدستور.

#### سابعاً: كيفية وضع الدستور المكتوب:

يتميز الدستور المكتوب عن الدستور العرفي بالأساليب التي تستخدم في وضعه أو في إقراره، ومن تلك الأساليب:

١- **المنحة:** فهذا الأسلوب يعتبر أن الدستور منحة من الملك أو حاكم البلاد، وبذلك يصدر الدستور في صورة وثيقة يتنازل فيها الحاكم المطلق عن بعض سلطاته للأمة، فمن ثم يعتبر هذا الدستور منحة ولا يجوز استردادها بعد ذلك.

٢- **العقد:** فيصدر الدستور على أساس أنه عقد بين الحاكم وشعبه،

فيكون الدستور وليد اتفاقٍ بين الحاكم وشعبه، ويقسم الحاكم اليمين باحترام هذا العقد.

٣- **اللجنة التأسيسية:** حيث يتم وضع الدستور بواسطة جمعيةٍ تأسيسية باعتبار أنَّ الأمة مصدر السلطات جميعاً، وهذه الوسيلة هي الأكثر استخداماً في وضع الدساتير المكتوبة، حيث إن الجمعيات التأسيسية تنوب عن الشعب في وضع نظام الحكم للإقليم، وبعد ذلك يجري الاستفتاء الشعبي الذي له أن يقر مشروع الدستور الذي تضعه اللجان الحكومية المعينة، ومثاله الدستور المصري لعام ١٩٥٦ م<sup>(٣٤)</sup>، وبذلك يكون الدستور ثمرة الاستفتاء الشعبي لا الجمعية التأسيسية، أما دستور دولة البحرين فقد أقره المجلس التأسيسي في جلسته الخامسة والأربعين المنعقدة يوم السبت ٨ جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ الموافق ٩ يونيو ١٩٧٣ م، ذلك المجلس الذي أطلق عليه (المجلس التأسيسي) والذي كان يضم ٤٣ عضواً جاء بناءً على مرسوم بقانون رقم (١٢) الصادر بتاريخ ٢٠ يونيو ١٩٧٢ م<sup>(٣٥)</sup>.

#### ثامناً: دستورية القوانين:

يختلف القانون الدستوري الذي هو فرعٌ من فروع القانون العام (قوانين الدستور) عن القانون الإداري (العادي) الذي يختص بتفسير هذه القواعد العامة إلى جزئياتٍ، فبينما يبحث القانون الدستوري في الحریات العامة التي تكفلها الدولة للأفراد في ظل القانون الأساسي - وهو الدستور -، يُفصل القانون الإداري حدود هذه الحریات، كمدى رقابة السلطات الحكومية على حرية الصحافة أو الاجتماعات العامة، من هذا تتضح أهمية البحث في

دستورية القوانين التي تمثل قاعدةً نظاميةً تحرص على ضرورة مطابقة القوانين التي تصدرها السلطة التشريعية لنصوص الدستور المكتوب، والحكم على دستورية القوانين يكون بأحد حيثين:

١- الشكل: ففي هذه الحالة يعتبر القانون غير دستوري إذا جاء غير مستوفٍ للإجراءات الشكلية التي يحتمها الدستور، كما إذا صدر القانون دون موافقة أحد المجلسين عليه فيما إذا كانت السلطة التشريعية تتضمن مجلسين أو كما إذا وافق أحد المجلسين على صيغة مشروعٍ تختلف في مدلولها عن الصيغة التي أقرها المجلس الآخر، فمن ثم ليس للقاضي أن يطبقَ مثل هذا القانون.

٢- الموضوع: ويعني بذلك أن يكون حكم القانون مخالفًا لنصٍّ أو حكمٍ دستوريٍّ، كما إذا صدر قانونٌ يحد من إحدى الحريات التي كفلتها الدستور<sup>(٣٦)</sup>.

#### تاسعاً: رقابة القضاء لدستورية القوانين وأساليبها:

هل يصح للقضاء مراقبة القوانين والنظر في دستوريتها أم أن وظيفته تقتصر على تطبيق القانون من دون إمعان النظر في دستوريتها؟ إن الآراء القانونية والفقهية قد اختلفت في ذلك وانبثق قولان:

١- عدم جواز الرقابة: بمعنى أنه لا يجوز لسلطة المحاكم أن تتعرض لبحث دستورية القانون من حيث الشكل أو المضمون مادام القانون قد صدر بتوقيع رئيس الدولة، إذ أنّ وظيفة القضاء تقتصر على تطبيق القانون من دون بحث دستوريته.

٢- جواز الرقابة: إذ أن من واجبات القاضي أن يبحث في كل تعارضٍ عن القانون الذي يجب تطبيقه لكي يستبعد غيره، فهو لا يقضي ببطلان القانون بل يكتفى بجواز رقابة القضاء لدستورية القوانين فما هي الأساليب التي يتخدتها القضاء لإعمال رقابته لدستورية القوانين؟

إن أساليب الدول تختلف في كيفية إعمال القضاء لرقابته للقوانين، فمنها:

- ١- تكليف قاضٍ بالرقابة القضائية كما في الولايات المتحدة الأمريكية.
- ٢- تناظر الرقابة بمحكمةٍ خاصةٍ كما في إسبانيا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا في الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين<sup>(٣٨)</sup>.
- ٣- أن تكون الرقابة بعهدة المحاكم العادلة.
- ٤- أن تكون الرقابة أمام المحاكم العليا كمحكمة النقض أو القضاء الإداري<sup>(٣٩)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن القاضي لدى دراسته القوانين الجديدة لا يقتصر على مقارنتها بالنص الحرفى للدستور، وإنما يتعدى إلى مقابلتها بروح النصوص الدستورية التي تستخرج من الإرادة الشعبية المعبّر عنها بوضوح في الاستفتاءات الانتخابية<sup>(٤٠)</sup> بالإضافة إلى المبادئ الدستورية العامة التي هي مشتركةٌ بين الغالبية العظمى في دساتير دول العالم.

فالمبادئ الدستورية (هي القواعد التي استقر عليها الفن الدستوري أو علم الدساتير سواءً من حيث الشكل أو من حيث المضمون)<sup>(٤١)</sup>. هذا كله بالنسبة لرقابة القضائية لدستورية القوانين، أما بعض الدول فإنها تخضع

القوانين لرقابةٍ سياسيةٍ، فتناطر الرقابة السياسية لدستورية القوانين إما بجلس الشيوخ كما نص عليه دستور فرنسا سنة ١٨٥٢، وإما بجلسٍ دستوريٍّ على صلةٍ مباشرةٍ برئيس الجمهورية ورئيس مجلس النواب والشيوخ ورئيس الوزراء، حيث يخولونه مهمة إبداء رأيه في القوانين المدنية قبل نشرها، كما يتوجب عليه إبداء ملاحظاته قبل نشر القوانين الأساسية<sup>(٤٢)</sup>.

أما دستور دولة البحرين فقد أوكل تعين الجهة القضائية التي تختص بدستورية القوانين إلى القانون، حيث جاء في المادة (١٠٣) من الدستور ما يلي: (يعين القانون الجهة القضائية التي تختص بالفصل في النازعات المتعلقة بدستورية القوانين واللوائح، ويبين صلاحياتها والإجراءات التي تتبعها. ويケفل القانون حق كلٌّ من الحكومة وذوي الشأن في الطعن لدى تلك الجهة في دستورية القوانين واللوائح، وفي حالة تقرير الجهة المذكورة عدم دستورية قانونٍ أو لائحةٍ يعتبر كأن لم يكن).

#### عاشرًا: هل للحكومات الدستورية دين؟

توجد ثلاثة مذاهب<sup>(٤٣)</sup> وهي:

١- وجود تدين الحكومة بدينٍ واحدٍ يسمى دينها الرسمي تخصه بجميع المزايا دون غيره، ويكون هذا الدين دين الأكثريّة العظمى، لهذا تنص المادة (٢) من دستور دولة البحرين التي لا يجوز تعديلها بنص الفقرة (ج) من المادة (١٠٤) على أن (دين الدولة الإسلام والشريعة الإسلامية مصدرٌ رئيسيٌ للتشريع).

٢- وجوب اعتراف الحكومة ببعض الديانات والمساواة بينها في المنح والمساعدات.

٣- فصل كل الأديان عن الحكومة فلا تعترف بدينٍ ما ولا تخص دينًا دون دينٍ بشيءٍ ما، وذلك كفرينسا من سنة ١٩٥٥، إذ قررت عدم الاعتراف بأي دينٍ من الأديان<sup>(٤)</sup>.

**ملاحظة:** استشهدنا في بعض النقاط العشر من هذا الفصل ببعض بنود الدستور إلا أننا لم نتطرق إلى مشروعيتها نظرياً كما أننا لم نتطرق إلى تتحققها عملياً.

## المواهش:

(١) تطلق الكلمة (دستور) في اللغة الفارسية على عدة أمور منها (الأمر والقرار)، فتقول مثلاً: علي دستور داد، بمعنى: أعطى عليًّا أمرًا، جاء في فرهنگ طلائي ص ٢٧١ ما يلي: (دستور - قانون، أمر، وزير، المعتمد في سيرورة الأمور، رجل دين زرادشتی، رخصة، إجازة، برنامج)، كما يطلق على دستور البلاد في اللغة الفارسية (قانون اساسی)، جاء في فرهنگ اصطلاحات روز، ص ٢٤٥ ما يلي: (قانون اساسی: الدستور)، فالدستور البلد يسمى في اللغة الفارسية (قانون اساسی).

(٢) القاموس السياسي، ص ٢٢١.

(٣) راجع المجد، ص ٢١٤، مادة دست.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين، ج ٤، ص ٣٦.

(٥) دستور دولة الكويت والدستور العربي المعاصر، ص ٨.

(٦) دائرة معارف القرن العشرين، ج ٤، ص ٣٦.

(٧) موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٦٧٩.

(٨) الأنظمة السياسية المعاصرة، ص ١٢٣.

(٩) القاموس السياسي، ص ٥٢١.

(١٠) موسوعة السياسة، ص ٦٨٠.

(١١) الأنظمة السياسية المعاصرة، ص ١٢٦.

- (١٢) القاموس السياسي، ص ٥٢٢.
- (١٣) الحكومة في الإسلام، ص ١٠٧.
- (١٤) دائرة معارف القرن العشرين، ج ٤، ص ٤٠.
- (١٥) الحجرات: ١٣.
- (١٦) راجع دائرة معارف القرن العشرين، ج ٤، ص ٣٧ - ٣٨.
- (١٧) النظم السياسية، الدولة والحكومة، ص ٨٦٧.
- (١٨) راجع القاموس السياسي، ص ٢٢٣.
- (١٩) راجع موسوعة السياسة، ج ١ ن ص ٨٤٨، ص ٩١٣.
- (٢٠) للاطلاع على المزيد راجع دائرة معارف القرن العشرين، ص ٣٨.
- (٢١) راجع (مجموعة القوانين والتشريعات الحديثة الصادرة في دولة البحرين خلال الأعوام ١٩٧٩ / ١٩٧٠ م)، ص ٢.
- (٢٢) راجع (مجموعة القوانين والتشريعات الحديثة الصادرة في دولة البحرين خلال الأعوام ١٩٧٩ / ١٩٧٠ م)، ص ٦.
- (٢٣) راجع (الأنظمة السياسية المعاصرة)، ص ١٢٧ - ١٢٨.
- (٢٤) علم السياسة تجديد من وجهة نظر إسلامية ص ١١٧.
- (٢٥) راجع الفقرة (أ) من المادة (٣٢) من دستور دولة البحرين، مجموعة القوانين الصادرة -القسم الأول- ص ٦.
- (٢٦) راجع علم السياسة، تجديد من وجهة نظر إسلامية، ص ١١٣، ١١٨.
- (٢٧) راجع دائرة معارف القرن العشرين، ص ٣٩.
- (٢٨) موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٦٨٠، كما يحسن مراجعة القاموس السياسي، ص ٥٢٣.
- (٢٩) راجع القاموس السياسي، ص ٥٢٣.
- (٣٠) راجع القاموس السياسي، ص ٥٢٣.
- (٣١) راجع القاموس السياسي، ص ٥٢٢.
- (٣٢) للمزيد من الاطلاع راجع موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٦٨٠.
- (٣٣) نص المادة الثانية من الدستور: (دين الدولة الإسلام، والشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع ولغتها الرسمية هي اللغة العربية).
- (٣٤) راجع القاموس السياسي، ص ٥٢٣.
- (٣٥) راجع مقدمة دستور دولة البحرين الواردة في (رياح التغيير في البحرين)، ص ٣٣٠.

- (٣٦) راجع القاموس السياسي، ص ٥٢٦ و موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٦٨٠ - ٦٨١.
- (٣٧) راجع القاموس السياسي، ص ٥٢٦ و موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٦٨٠ - ٦٨١.
- (٣٨) راجع موسوعة السياسة، ج ٥، ص ٣٧٨.
- (٣٩) راجع القاموس السياسي، ص ٥٢٦.
- (٤٠) راجع موسوعة السياسة، ج ٥، ص ٣٧٨.
- (٤١) الأنظمة السياسية المعاصرة، ص ١٧.
- (٤٢) راجع موسوعة السياسة، ج ٥، ص ٣٧٨.
- (٤٣) راجع دائرة معارف القرن العشرين، ج ٤، ص ٤١.
- (٤٤) راجع دائرة معارف القرن العشرين، ج ٤، ص ٤١.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ  
ذَرَّ وَأَثْى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا  
وَقَبَائِيلَ لِتَعْارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ  
اللَّهِ أَتَقَاءِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ

سورة الحجرات: ١٣

# التربية الإنسانية للطفل

حسين جاسم عبدالله

## المقدمة:

الحمدُ لله ربُ العالمين، والصلوة والسلام على خاتم الرسل والأنبياء محمد المصطفى وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد، الأسرة هي اللبننة الأولى لتكوين المجتمع، وهي نقطة الانطلاق في إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني، ونقطة البدء المؤثرة في جميع مرافق المجتمع ومراحل سيره الإيجابية والسلبية، وهذا أبدى الإسلام عنابةً خاصةً بالأسرة، فوضع لها آداباً وفقها متكاملاً شاملاً لجميع جوانبها النفسية والسلوكية.

وآداب الأسرة -أو قل فقه الأسرة- لم تنشأ من فراغٍ ولا تبحث في فراغٍ، وإنما هي آدابٌ أو فقهٌ واقعي يراعي الطبيعة البشرية بما فيها من الفوارق الجسدية والنفسية بين الجنسين، ويراعي الحاجات الفطرية، فلا يبذلها ولا يعطيها ولا يحملّها ما لا تطيق، وهو يتمثل بالدقة في تناول كل خالجةٍ نفسيةٍ وكل موقفٍ وكل حركةٍ سلوكيّةٍ، ويجعل العلاقات في داخل الأسرة علاقات سكنٍ للروح وطمأنينةٍ للقلب وراحةٍ للجسد، علاقات سترٍ وإحسان، وبهذب النفس للحيلولة دون استسلامها للأهواء والشهوات المتقلبة، ويخررها من نزعات المطامع والرغبات الزائلة.

وفي بحثنا هذا نتعرض لنقطةٍ مهمةٍ في الأسرة، وهي التربية الجنسية للطفل، ونخوض في بعض جوانبها كتعريف الغريزة، العقل والشهوة،

التربية الجنسية وإبعاد الطفل عن الإثارة. ومنه تعالى نستمد العون والتسديد.

### تعريف الغريزة:

الغريزة في اللغة هي الطبيعة والقرحة والسببية، وقال البحياني: (هي الأصل والطبيعة). وفي الاصطلاح هي استعدادٌ فطريٌّ نفسيٌّ جسميٌّ يدفعُ الفرد إلى أن يدرك ويتبه إلى أشياء من نوع معينٍ، وأن يشعر بانفعالٍ خاصٍ عند إدراكتها، وأن يسلك نحوها مسلكاً خاصاً.

والغريزة كما هو المستفاد من معناها أمرٌ مغروزٌ في داخل الذات، يتفاعل مع المحيط الخارجي لينطلق نحو الاستجابة والإشباع، وهي قوة لا نلاحظها مباشرةً، بل نستنتجها من الاتجاه العام للسلوك الصادر منها في الواقع، ومن هنا فللغرizia مظاهر ثلاثة:

١- مثيرٌ خارجي.

٢- سلوكٌ عملي.

٣- هدفٌ يراد تحقيقه.

وبعبارة أخرى إن الغريزة تتفاعل مع الشعور بظاهره الثلاثة: الإدراك، والانفعال، والرغبة للتحقيق، فهي تتفاعل مع المثير الخارجي وتنفعل مع مظاهره المتنوعة، وتنطلق لتحقيق هدفها وهو الإشباع والارتواء، وهذا التفاعل والانطلاق هو أمرٌ فطريٌّ لا يختلف ولا يتخلّف من فردٍ لآخر، وأما السلوك الصادر عن الغريزة، فهو أمرٌ تتحكم به إرادة الإنسان وما يحمله من متبنياتٍ فكريةٍ وعاطفيةٍ وخلقيةٍ من حيث نظرته للكون وللحياة

والجتمع، فيكون منسجماً معها مطابقاً للأسس والقواعد التي بناها في رسم منهجه في الحياة، ولهذا يختلف سلوك الإنسان وممارساته العملية اندفاعاً وانكماساً من إنسان آخر تبعاً لدرجات إيمانه واعتقاده بمتبنياته.

### العقل والشهوة:

وتتنوع الغرائز بتنوع تركيبة الإنسان وكيونته، فهو جسدٌ وروحٌ وكلٌّ منهما وظائفه الخاصة المترتبة على الحاجات الأساسية العضوية والوجدانية في آنٍ واحدٍ، والتقييم الثنائي للغرائز يرجعها إلى العقل والشهوة، وهما الأساس الذي تتفرع وتتنوع منها سائر الغرائز والدوافع وال الحاجات. قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (إِنَّ اللَّهَ رَكَبَ فِي الْمَلَائِكَةِ عُقْلًا بِلا شَهْوَةٍ، وَرَكَبَ فِي الْبَهَائِمِ شَهْوَةً بِلا عُقْلًا، وَرَكَبَ فِي بَنِي آدَمَ كُلَّتِهِمَا، فَمَنْ غَلَبَ عُقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ غَلَبَ شَهْوَتُهُ عُقْلُهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهَائِمِ) <sup>(١)</sup>.

ومصطلح الشهوة يطلق على القوة التي تشتهي، وعلى الأمر المشتهى، فمن العقل تتفرع غريزة التدين وغريزة التكامل أو حب الكمال، وغريزة الأمان والاستقرار، ومن الشهوة تتفرع غريزة الجوع والغريزة الجنسية وبقية الغرائز ذات الطابع الجسماني، عن الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: (قال رسول الله ﷺ: إن أول ما عصي الله به ستة أشياء: حب الدنيا، وحب الرئاسة، وحب الطعام، وحب النوم، وحب الراحة، وحب النساء) <sup>(٢)</sup>.

وقد أيد العلم الحديث ما قاله الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في نظرته للإنسان، حيث إن المفهوم السائد في هذا العصر (أن الإنسان لا هو حيوان ولا هو من

السماء، ولكنه بين الاثنين، وتطوره يعتمد على تمييزه المضبوط لطبيعة إمكاناته المحدودة)، فالإنسان في رأي أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ تتجاذبه قوتان: الشهوة والعقل، وهذه القوى تبكر لديه في الظهور واليقظة، وتسرع عنده في النمو والتأثير، وهي المؤثرة في بنائه الخلقي والنفسي، فإذا نمت قوة الشهوة وتغلبت على قوة العقل فإن الإنسان سيكون مستسلماً لهواه ولذاته وسيشبعها دون قيودٍ أو شروطٍ في أجواء المثيرات والمغربات الخارجية إلى أن يصبح كالحيوان همه بطنه وفرجه، أو يقف الواقع حائلاً دون إشباعها؛ فيؤدي ذلك إلى اختلال التوازن النفسي والانفعالي في كيانه فيصاب بالاضطراب النفسي والروحي، وإذا غلت قوة العقل قوة الشهوة، فإن الإنسان سيشبعها في وجهها الإيجابي، فهو لا يوقف الشهوة ولا يعطلها بل يوجهها وجهاً عقلانياً ويقيدها بقيود الشريعة أو يؤجل إشباعها إلى ظرفها المناسب المشروع.

دور العقل هو تعديل الشهوة وتهذيبها واستبدال مثيراتها الطبيعية بمثيراتٍ أخرى تتجه بها إلى السمو والكمال، وتدع به سلوكها الفطري إلى سلوكٍ فيه النضج والقوة للفرد والصلاح للمجتمع، والعقل يقدم التسامي على اللذات الفانية، ويوجه الإنسان إلى طاعة ربّه ويقدمها على غيرها.

ويصف الإمام محمد الباقر عَلَيْهِ الْكَلَمُ أهل التقوى قائلاً: (أخرروا شهواتهم ولذاتهم خلفهم، وقدموا طاعة ربّهم أمامهم)<sup>(٣)</sup>، فالإمام لم يقل: الغوا شهواتهم ولذاتهم أو عطّلواها، بل قال: أخرروا، لأنّ منهج أهل البيت عَلَيْهِ الْكَلَمُ هو منهج التوازن، ولهذا نجد أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ يعاتب عاصم ابن زياد حينما ليس العباءة وتخلى عن الدنيا فيقول له: (يا عديّ نفسه، لقد استهان

بك الحبيث! أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره  
أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك<sup>(٤)</sup>.

ومنهج أهل البيت عليهم السلام يدعو إلى أن يكون العقل حاكماً على الشهوات،  
لأن الانسياق وراء الشهوات يؤدي إلى وقوع الإنسان في مهاوي الرذيلة،  
ومن أشهرها ما ورد في أقوال أمير المؤمنين عليه السلام:

١- (قرین الشهوة مريض النفس معلول العقل).

٢- (غلبة الشهوة تبطل العصمة وتورد الْهُلْكَ).

٣- (من زادت شهوته قلت مروعته).

٤- (إنكم إن ملكتكم شهواتكم نزت بكم إلى الشر والغواية)<sup>(٥)</sup>.

وخلاصة القول: إن غلبة العقل على الشهوة - يعني تحكمه فيها - يجعل  
الإنسان في قمة السمو والتكميل، وإن غلبة الشهوة على العقل يجعل  
الإنسان في المستنقع الآسن وفي ركب الطالحين، قال الإمام جعفر  
الصادق عليه السلام: (لا تدع النفس وهوها، فإنّ هوها رداها، وترك النفس وما  
تهوى أذاها، وكفّ النفس عمّا تهوى دواها)<sup>(٦)</sup>.

ومن هنا تتضح لنا أهمية التربية الجنسية ودورها الفعال في بناء  
المجتمع بشكل متوازن بين العقل والشهوة، وضرورة التركيز على إبعاد  
الطفل عن الإثارة والعوامل التي تؤثر على شخصيته وسلوكه الشخصي  
والاجتماعي.

### التربية الجنسية وإبعاد الطفل عن الإثارة:

التربية الجنسية من أصعب وأعقد أنواع التربية، وهي من الظواهر التي

تسبب إحراجاً للوالدين، وتتنوع طريقة التربية تبعاً للمنهج الذي يتبنّاه الوالدان وتبعاً للعادات والتقاليد الحاكمة على المجتمع، وتبعاً لدرجة الإدراك والوعي التي يحملها الوالدان، ولذا نجد إفراطاً أو تفريطًا في كثيرٍ من أساليب التربية الجنسية، والطفل سواءً كان ذكراً أم أنثى يبدأ بالتساؤل عن كثيرٍ من الأمور المتعلقة بالجنس، فيتساءل عن كيفية خلقه في بطن أمه، واحتياجات الأم بالحمل دون الأب، وكيفية الولادة، ويتساءل عن عدم الحمل عند الطفلة الصغيرة أو المرأة غير المتزوجة، ويتساءل عن الفرق بين الذكر والأنثى وعن سببه، إضافةً إلى العديد من الأسئلة، ومن العقل والحسنة أن يعتبر الوالدان أن هذه الأسئلة طبيعيةٌ، فلا يظهروا مخاوفهم منها، والأفضل عدم منع الطفل من هذه الأسئلة لأنَّه سيبحث عن الإجابة من غير الوالدين فتسبيب له أتعاباً وانزعاجاتٍ وقلقًا، وقد تكون إجاباتٍ غير شافيةٍ أو إجاباتٍ صريحةٌ، فعلى الوالدين أن يكونوا على استعدادٍ تامٍ لمساعدة الطفل بإجاباتٍ معقولةٍ مريحةٍ تشبع فضولهم وتقطع تساؤلاتهم بعد الإقناع والوثوق بها، على أن تكون منسجمةً مع فهم الطفل وإدراكه ودرجة تقبله، وعلى سبيل المثال إن سُئل عن الحمل فيكون الجواب (إن الله تعالى يضع الطفل في بطن أمه)، وإن سُئل عن الاختلاف بين الجنسين يكون الجواب (أنت مثل والدك، وأنت مثل والدتك) أو يقال له: (لقد خلق الله الأولاد مختلفين عن البنات)، وأن تكون الإجابة بشكلٍ طبيعيٍ بعيدٍ عن القلق والاضطراب، بل بشكلٍ هادئٍ لا يفهم الطفل من خلالها أن سؤاله والجواب عنه غير طبيعيٍ لأنَّه يدفعه للبحث بنفسه عن الجواب.

وهنالك رغباتٌ عند الأطفال يجب أن تعالج بتصورٍ هادئٍ ومرنٍ دون

تزمتٌ باستخدام التأنيب أو الضرب، ففي المرحلة التي تقع بين السنة الثالثة والخامسة أو السادسة من العمر يميل الأطفال إلى (التلذذ بعرض أجسامهم من حينٍ آخر)، وبعض الأطفال يعيشون باللعب بأعضائهم التناسلية، فعلى الوالدين إبعادهم عن ذلك بالأسلوب المادي وإشغالهم بشيءٍ آخر، وعليهم أن لا يتعرّوا أمام الأطفال، فإن معظم الأطباء النفسيين قرروا من واقع خبراتهم وتجاربهم (إن عري الآبوين وكشفهم لما يجب أن يستر، أمرٌ مزعجٌ للطفل)، ويعلق الدكتور (سبوك) على ذلك قائلاً: (اقتصر على كل الآباء والأمهات، أن يراعوا ذلك ويستروا ما يجب أن يستر إلى الحد المعقول في وجود الطفل دون أن يحيطوا الأمر بهالات الانزعاج العفوية التي تحدث في كل أسرة<sup>(٧)</sup>، وأغلب الأطفال في مرحلة الطفولة المبكرة من العام الرابع حتى السادس تصبح عندهم أعضاء التناسل منطقهً مولدةً للذلة، ثم تأتي بعدها مرحلة الكمون، ولهذا حذر أهل البيت<sup>عليهم السلام</sup> من إثارة الطفل الجنسية في هذه المرحلة، وأفضل طريقةٍ لإبعادهم عن الإثارة الجنسية هو إبعاده عن رؤية المباشرة بين الوالد والوالدة، فعن الإمام جعفر بن محمد الصادق<sup>عليه السلام</sup> قال: (قال رسول الله<sup>ص</sup>: والذى نفسي بيده لو أنَّ رجلاً غشى امرأته وفي البيت صبيٌ مستيقظٌ يراهما ويسمع كلامهما ونفَسَهما ما أفلح أبداً إن كان غلاماً كان زانياً، أو جاريةً كانت زانية<sup>(٨)</sup>)، وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق<sup>عليه السلام</sup>: (لا يجامع الرجل امرأته ولا جاريتها وفي البيت صبي، فإن ذلك مما يورث الزنا)<sup>(٩)</sup>.

والطفل في هذه المرحلة يحاكي سلوك الآبوين ويقلّدهم فيعمل ما يعمله أبواه، وبما أن (اللعبة المفضلة في تلك الأعمار هي لعبة العريس

والعروسة)، لذا فإن الأطفال سيمارسون في لعبهم ما شاهدوه من ممارساتٍ جنسيةٍ من قبل الوالدين، وقد يستمرُّون عليها في مراحل العمر المتقدمة، فيجب على الوالدين التَّجنب عن ذلك، والتَّجنب عن مقدماته كالالتقبيل وغيره، ومن الخطأ الفاحش الذي يقوم به بعض الوالدين هو التحدث عن أمور الجنس أمام الأطفال في بعض المناسبات، فإن ذلك يدفع الأطفال إلى زيادة فضولهم، وعلى الوالدين أن يحتاطا في إجراء المباشرة حتى في حالة نوم الطفل خوفاً من استيقاظه فجأةً، فإن ذلك يولد في أعماقه صدمةً نفسيةً تبقى كامنةً في اللاشعور، وعلى الوالدين أن يراقبا سلوك أبنائهم وطريقة ألعابهم، وخصوصاً في أماكن اختلاطهم بعضهم بالبعض الآخر، . ويجب على الوالدين وقاية الأطفال من الإثارة الجنسية، وهو التَّفريقي بينهم في حالة النَّائم، بأن توضع فاصلٌ بينهم، فلا ينامون تحت غطاءٍ واحدٍ بحيث يحيط جسم أحدهم بالآخر، وقد وردت عدة رواياتٍ تؤكِّد هذه الوقاية، قال رسول الله ﷺ: **(يفرق بين الصبيان في المضاجع لست سنين)**<sup>(١٠)</sup>، وفي روايةٍ أخرى عنه ﷺ: **(فرقوا بين أولادكم في المضاجع إذا بلغوا سبع سنين)**<sup>(١١)</sup>، والتفريق مطلقٌ، بين الذكور والذكور، وبين الإناث والإناث، وبين الذكور والإناث.

وفي وقتنا الحاضر وبعد انتشار أجهزة السينما والتلفزيون والفيديو تكون الحاجة شديدةً إلى إبعاد الطفل عن الإثارة الجنسية، ويجب على الوالدين في البلدان التي لا تبني الإسلام منها لها في الحياة، وتعرض الأفلام المثيرة، أن يقوموا بجهدٍ إضافيٍ في مراقبة الأطفال ووقايتهم من النظر إلى هذه الأجهزة حذراً من مشاهدة الأفلام غير المختشمة، وفي الخصوص في البلدان التي ترى أن أفضل أسلوبٍ لتحرير الأطفال من الكبت المستقبلي

هو عرض الأفلام الجنسية، وقد أثبت علماء النفس وال التربية صحة النظرية الإسلامية في ذلك، فالدكتور (سبوك) الأمريكي يقول: (إن النسبة المعتدلة من التحرير التي فرضت علينا جميعاً أثناء الطفولة والتي نقلناها نحن بدورنا إلى أبنائنا، تلعب دوراً إيجابياً في تحرير عقل الطفل في أثناء سنوات الدراسة للتفرغ لاهتماماتٍ غير ذاتيةٍ مثل الكتابة والقراءة والحساب)<sup>(١٢)</sup>، ولذا نراه ينتقد الممارسات الخاطئة في أمريكا وهي عري الرجال وعرى النساء على الشواطئ الأمريكية، وخلاصة القول إن على الوالدين أن يحييا على أسئلة الأطفال حول مسائل الجنس بهدوءٍ لا تزمرّ فيه، وأن يبعداهم عن الإشارة الجنسية بمختلف ألوانها وأشكالها، وخصوصاً في عصر السينما والتلفزيون والفيديو والإنترنت، وأن يكتشفوا المراقبة عليهم عند استخدام هذه الأجهزة دون لفت انتباهم أو إزعاجهم بهذه المراقبة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المواهش:

- (١) علل الشرائع / الشيخ الصدوق: ١ ص ١٠٢
  - (٢) مجموعة وراثم: ٢ ص ٢٥٠
  - (٣) تحف العقول / الحراني: ص ٢٠٩
  - (٤) نهج البلاغة: ص ٣٢٤
  - (٥) تصنیف کرم الحکم: ص ٣٠٥
  - (٦) الکافی / الکلینی: ٢ ص ٣٣٦
  - (٧) مشاکل الآباء: ص ٢٨٢
  - (٨) وسائل الشیعۃ: ٢٠ ص ١٣٣
  - (٩) وسائل الشیعۃ: ٢٠ ص ١٣٤
  - (١٠) مکارم الأخلاق: ص ٢٢٣
  - (١١) مکارم الأخلاق: ص ٢٢٣
  - (١٢) مشاکل الآباء: ص ٢٨٤

## النقد البناء

علي المسترشد

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾،  
﴿وَقَوْفُهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانُوا  
عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

كثيراً ما نسمع و نرى أو نقرأ انتقاداتٍ كثيرةً في كل مكان، بل قد لا يخلو منها مجلسٌ يجتمع فيه عدة أشخاصٍ! و تطال هذه الانتقادات شخصياتنا و رموزنا و كياناتنا و مؤسساتنا الفاعلة التي كلفنا الوصول إليها و تحصيلها إلى عناءٍ كبيرٍ و دماءٍ غالٍ من أبناء هذه الأمة لا تقدر بثمنٍ.  
وأخذت هذه الظاهرة تتفشى وبنشاطٍ وحيويةٍ غريبةٍ بلا ضابطةٍ و بلا قيدٍ تحت مسمياتٍ وشعاراتٍ مختلفةٍ، منها النقد البناء وحرية الرأي والتعددية في وجهات النظر، بل والأدهى والأمر أن يقول البعض بأنها تكليفٌ شرعى!!  
وإلى غيرها من المسميات التي قد تخدع وتنطلي حتى على من يطلقها ويروجها أحياناً فضلاً عن المتلقى أو السامع لها.

والمميز في الأمر بأن هذه الانتقادات تتوجه بشكلٍ أساسٍ للكوادر والطاقات الفاعلة والنشطة والمنتجة في المجتمع ولا تتوجه للخاملين والفاترين إلا ما ندر، يقول الإمام القائد الخامنئي (دام ظله): (إن الانتقاد موجود، و معروفُ القول: (منْ أَلْفَ اسْتُهْدِفَ)، فأين تأليف كتابٍ واحدٍ من تأليف عشرات الكتب من النشاط والحركة والعمل؟). فهذا جانبٌ بسيطٌ

من ضرورة الانتقام لخط الله تعالى وطريق ذات الشوكة.

لكتنا نود توجيه النظر لتقنيين وضبط هذه الظاهرة (ظاهرة الانتقاد والتشهير والتجريح) فهل هذه الحالة الموجودة بيننا اليوم هي حالة صحيحة وسلامية؟ أو أنها حالة مرضية خطيرة؟ هل هي حالة ترضي الله عز وجل أو أنها تجلب سخطه وعذابه؟ وهل هي فعلاً تنطبق على النقد البناء الذي سيكون محورنا لهذا الموضوع أو لا؟

فما هو المقصود من النقد البناء؟ وهل للنقد البناء أهداف معينة؟ وهل للنقد البناء شروطٌ وضوابط أو لا؟ وما هي الآثار المترتبة على النقد الالامسؤول وغير البناء؟

في هذه السطور القليلة نسعى للاقتراب شيئاً ما من الإجابة عن هذه الأسئلة بعون الله تعالى وتوفيقه.

### ما هو تعريف النقد البناء؟

نقصد بالنقد البناء التعريف بنقاط الخلل الفكري والنظري أو السلوكية المتواجدة في حياة الفرد والمجتمع، ووضع اليد عليها وذلك بهدف معالجتها وإزالتها وإصلاحها.

### أهداف النقد البناء:

ولكي يكون نقدنا لممارسات وأداء أو آراء وأفكار الآخرين نقداً سليماً بناءً فيجب أن يكون نقدنا ضمن أهداف محددة تحت رضا الله تعالى وتخدم

المجتمع الإسلامي، ومن أبرز هذه الأهداف هي:

١- الإصلاح الفكري والسلوكي للشخصية أو المجتمع أو المؤسسة والجهة المتقدمة.

٢- التمييز بين الحق والباطل، وبين الاستقامة والانحراف.

٣- تخلص السلوك أو الفكر من الشوائب والتواصص.

٤- قوة الصدف وتناسكه وليس تمزيقه أو تفتیته أو تشويهه.

٥- هداية وإرشاد الآخرين والمحافظة عليهم.

**شروط النقد:**

المسألة ليست مسألة توجيه الملاحظات وبيان الأخطاء فقط، لأن ذلك

لن يؤدي لما نهدف منه إذا لم ينطلق أو يتحرك ضمن قواعد معينةٍ تجعل من ذلك تقوياً للمشاريع المتنوعة والشخصيات المتصدية وغير ذلك، ومن تلك

**القواعد والشروط:**

١- الأخلاص والربانية في النقد.

٢- مراعاة الأخلاق الإسلامية عند النقد.

٣- أن يكون النقد في إطار الدائرة المقصودة.

٤- نقد الفكرة وليس الشخص.

٥- مراعاة الأسلوب المناسب.

٦- العدل والإنصاف والابتعاد عن الظلم.

٧- النظرة الشمولية الواسعة.

- ٨- اختيار الوقت والزمن والمكان المناسب لتوجيه النقد.
- ٩- النظرة الواقعية الموضوعية.
- ١٠- المستوى الفكري والعلمي والثقافي ومستوى الخبرة.
- ١١- مراعاة موقعية ومكانة الجهة المتقددة.
- ١٢- الوعي للأعداء وأخذهم بنظر الاعتبار.  
فينبغي أن يكون النقد ذكيًا مرتبًا حتى لا يستغله الأعداء.

**نظرة في شروط النقد البناء:**

#### **الشرط (١): الإخلاص لله تعالى في ممارسة النقد:**

وذلك بأن يتجرد الإنسان عن كل العوامل والخلفيات الشيطانية، والذاتية والنفسية، فهناك الكثير من الخلفيات المريضة التي تحول النقد البناء إلى نقد هدامٍ فتاكٍ، يفتك بالمجتمع ويسقط شخصياتنا الربانية. ومثلاً على تلك الخلفيات والدوافع النفسية التي تؤدي لابتعاد النقد عن الإخلاص لله تعالى دوافعٌ نابعةٌ من الرذائل الأخلاقية والنفسية كحب الرئاسة والحسد وحب الدنيا والجاه والعجب بالنفس والغرور والنظرة الفوقانية لآخرين وتقزيمهم وتقزيم إنجازاتهم العملاقة.

وقد أشار الإمام الراحل فقيه إلى أن من أسباب الانتقادات هو الأمراض النفسية، يقول فقيه لابنه المرحوم السيد أحمد رحمه الله: (وجب أن أقول لك أولاً: بأنك مادمت حياً ترزق، وما دمت متحركاً وذا تأثير بنظر الآخرين، فلا مناص من توجه الانتقاد والتهمة والشائعات المختلفة نحوك، فالعقد كثيرة

والتوقعات متزايدةُ والحسد كثيرٌ، والفعال - حتى إذا كانت فعاليته خالصة لله - لن يمكنه تفادي تجريح أهل السوء.

أنا شخصياً أعرف عالماً تقىً جليلاً، لم يكن يذكر - قبل اعتلائه مقاماً بسيطاً - إلا بالخير - نوعاً ما - وكان أهل العلم وغيرهم سِلماً له تقريراً، حتى إذا توجهت إليه النفوس، وحصل على شخصيةٍ دنيويةٍ - ولو أنها لا تكاد تذكر بالنسبة إلى علو مقامه المعنوي - أصبح مورداً للتهمة والأذى، وتأجّجت نيران الحسد والعقد بألوانٍ مختلفةٍ، وظلّ حاله هكذا إلى آخر عمره).

#### الشرط (٢): مراعاة الأخلاق الإسلامية عند النقد:

أ- يجب أن يكون أصل الموضوع وإحراز العيب والخطأ قطعياً قبل الخوض في النقد، دون الاعتماد على الشائعات والأخبار المغرضة والحسد والتخمين.

ب- أن يكون النقد بهدف الإصلاح والتقويم، لا من أجل فضح الأشخاص والتشهير بمعايبهم.

ج- أن ينطلق النقد من موقع الحب وإرادة الخير والإخلاص لا طمعاً في التفوق.

د- أن يكون النقد بعيداً عن الإهانة والتجاسر، بل لابد من مراعاة الأدب والمكانة. ويجب أن يكون النقد هديةً في الحقيقة، حيث يقول الإمام الصادق عليه السلام: (أحب إخوانني إلى من أهدى إلى عيوبه).

### **الشرط (٣): أن يكون النقد في إطار الدائرة المقصودة:**

بحيث يقتصر فيه على المساحة التي تتوقف عليها عملية الإصلاح، ومن الخطأ أن يتم النقد خارج الدائرة المقصودة، بحيث يتم نشر وإذاعة نقاط نظن أنها ضعف أو خطأ - إن وجد -، وهذا ما نراه اليوم في المقابلات والتصريحات الصحفية أو في بعض المنتديات الإلكترونية.

إذا كان الهدف من النقد هو الإصلاح فلماذا توسيع السلبيات؟ وهل أن عملية الإصلاح تتم من خلال نشر السلبيات؟ أو أن ذلك سيؤدي للتصلب في الآراء، والإصرار على الأخطاء وخلق العدوان والاختلافات؟ ربما تكون محقاً في تقييمك وملاحظاتك، لكنك تمارس الباطل بأسلوبك!

يقول إمام المسلمين القائد الخامنئي (دام ظله): (حسب اعتقادي أن هذا من بين الأمور البالغة الخطورة التي يقع فيها الأصدقاء والموالون بالخطأ أحياناً، فربما يتخلل الانتقاد الموجه لجهاز أو مؤسسة أو مسؤول ما كلام يتجاوز الحقيقة كثيراً في حالة انعكاسه إلى الخارج أو تلقّته أذهان المخاطبين الجالسين للإصغاء لما نتفوه به، وهذا ما ينبغي الخذر منه).

### **الشرط (٤): نقد الفكرة وليس الشخص:**

فهناك من يخدشون في الشخصية بدلاً من نقد الفكرة والنظرية. ويكون ذلك لأسباب أخرى غير هدف الإصلاح، بل لأسباب وعوامل قد تكون نفسية وشخصية، وقد تكون لها أسباب قومية أو طائفية أو حتى دينية.

#### **الشرط (٥): مراعاة الأسلوب المناسب لتوجيه النقد:**

وذلك بأن يتم اختيار الطريقة المناسبة للنقد، فليس هناك من يقبل طريقة الشتم والسباب والاستهزاء والاحتقار والاستنقاص، فيبيان الأخطاء ضمن هذه الأساليب خطأ بحد ذاته وفيه محذور شرعي أيضاً، وهو موجب للهدم وليس الإصلاح. فيجب مراعاة الأسلوب المناسب الذي ربانا عليه الإسلام الحمدي الأصيل.

#### **الشرط (٦): العدل والإنصاف عند النقد:**

فقد نظر إلى النتائج الموجودة من غير النظر إلى الظروف المحيطة بها والإمكانيات المتاحة، فنظن بأن هناك خللاً وقصيراً ما، بينما الواقع والحقيقة بأن ما هو متحقق يعتبر بحد ذاته نجاحاً باهراً إذا ما نظرنا للإمكانيات والظروف المتاحة، هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخر فإننا قد نحمل جهةً ما مسؤولية تقصير جهةٍ أو طرفٍ آخر غيرها ونلقي باللائمة عليها وهذا ظلمٌ كبيرٌ.

وقد جاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول: (ولا تضيئن بلاء امرئٍ إلى غيره). وفي هذا الصدد يقول الإمام القائد الخامنئي (دام ظله): (إننا لا نقول بـألا حقٌ لأيٍ أحدٍ بانتقاد الحكومة، لأن الانتقاد البناء الصحيح لا يعني الإضعاف، وهو معينٌ إن كان ينم عن حرصٍ وإنصافٍ، أما إذا كان بعيداً عن الإنصاف فسينفضح، وبناءً على هذا فأنا لا أريد منع الانتقاد، أما التشويه فنعم، إذ لا مصلحة فيه أبداً).

## **الشرط (٧): النظرة الشمولية الواسعة للظروف والحيثيات:**

لا بد أن يكون لدى الإنسان الآليات التي على أساسها وعلى ضوئها يمكنه محاكمة القضايا المطروحة، وذلك مثل أن يمتلك كل المعلومات وحيثيات الموضوع ويتعرف على كل الحقائق التي يمتلكها المقاود، ويتعرف على الجهد أو العمل الذي قام به الشخص أو الجهة التي يريد توجيه الانتقاد إليها. إذ قد يمتلك الشخص أو الجهة المتقددة معلومات لا يملكتها المتقد، الأمر الذي يجعله يحاكم القضايا من خلال معلومات أخرى وزاويةٍ ضيقٍ، وينظر إلى زوايا أخرى غير تلك الزوايا التي ينظر إليها المقاود.

وقد أقام إمامنا الراحل الخميني المقدس الحجة على أصحاب النظرة القرمية الضيقة إذ يقول في وصيته الإلهية: (إنني أوصي بعدم المسارعة في الانتقاد اللاذع والسب والشتائم قبل مطالعة الوضع العالمي الراهن، ومقارنته بالثورة الإسلامية في إيران مع سائر الثورات، والإطلاع على أوضاع الدول والشعوب أثناء الثورة وما بعدها، ودراسة ما كان يجري على الناس خلال تلك الفترات، والأخذ في الحسبان مشكلات هذه الدولة المنكوبة بنكبة الطاغوت رضاخان وابنه - الأسوء منه - وما تركاه من تركٌ ثقيلةٌ لهذه الحكومة بدءاً بالتبعية المدمرة، وانتهاءً بأوضاع الوزارات والإدارات والاقتصاد والجيش، ومراكز الفساد ومحال بيع الخمور، والانحلال السائد في جميع شؤون الحياة وأوضاع التربية والتعليم وأوضاع المدارس الثانوية والجامعات، وأوضاع دور السينما ودور البغاء، ووضع الشّباب والنساء

وعلماء الدين والمتدينين وطالبي الحرية الملتزمين والنساء العفيفات المظلومات والمساجد في عهد الطاغوت).

**الشرط(٨): اختيار الوقت والزمن والمكان المناسب لتوجيهه النقد:**

فقد تكون هناك ظروفٌ حرجةُ وأحداثٌ طارئةُ وأجواءُ ذات حساسيةٍ معينةٍ، فمن الخطأ بمكان إثارة نقدٍ معينٍ في هذه اللحظة أو تلك إلا بعد النظر للوضع والظرف المحيط، وهذا لكي لا تكون جنوداً وخداماً من حيث لا ندرى عند الطغاة والظالمين.

**الشرط(٩): النظرة الواقعية الموضوعية:**

وذلك بأن يلحظ الناقد الظروف المحيطة بال موقف. فلو كان نقده للموقف، فليس صحيحاً تحرير الموقف عن ملابساته وظروفه وحيثياته المحيطة به، ومن ثم توجيه النقد.

ومثالاً على ذلك - هل ننتقد فلاناً مباشراً لأنه أكل من الطعام الفلامي، أو علينا أولاً قبل توجيه الانتقاد أن ندرس الملابسات التي رافقت هذا الموقف، فربما لم يكن هناك طعامٌ وكان مضطراً لما أكله، فوجب عليه دفعاً للضرر أكل هذا الطعام. أو كان مثلاً للمعالجة، أو كان تحت أي مجوزٍ ومرخصٍ شرعياً، فإذا كان معذوراً أمام الله فكيف لا يكون معذوراً أمام المجتمع؟

ومع الأسف هناك من يأخذ من الانتقاد وسيلةً للوصول إلى أهدافٍ مريضيةٍ فلا ينظر بواقعيةٍ للحقائق، بل ويتعامى عنها في كثيرٍ من الأحيان

هادفاً من وراء تجاهله وتعاميه عن الحقائق إلى ضرب المجتمع الإسلامي أو تسقيط الرموز والشخصيات الفاعلة والقيادة المؤثرة.

وعلى المؤمنين تمييز الشخصيات التي تستخدم النقد للوصول إلى غاياتها المريضة الخادمة للاستكبار العالمي، وتسيير في نفس أهدافه اللعينة المدمرة، وبهذا الشأن يقول إمام المسلمين القائد الخامنئي (دام ظله) منبهًا الأمة الإسلامية الغيورة بأن (ثمة فئة شحذت همم مواجهة هذا النظام، سواءً عن طريق التنظير أو عن طريق الدعايات السياسية المخربة بشتى صورها، ويعملون على تشويه صورة النظام، ولا تقتصر مهمتهم على انتقاد النظام أو المسؤولين، بل هم يرون الانتقاد وسيلةً للقضاء على النظام نفسه! والذين يتوفرون على قدر من الإدراك والاستيعاب ومعرفة الظروف يدركون ذلك بكل جلاءٍ، وعليهم أي يدركوه).

#### الشرط (١٠): المستوى الفكري والعلمي والثقافي ومستوى الخبرة:

يجب مراعاة التساوي أو التقارب في المستوى الفكري والعلمي والثقافي والخبروي بين الناقد والمنقود.

فإن هذا الأمر من البديهيات الحياتية المعاشرة اليوم، فمن يوجه انتقاداته لكتابٍ أدبيٍّ لا بد أن يكون أدبياً أو ذا ذوقً أدبيًّ رفيع، ومن يوجه النقد للشعر يجب أن يكون شاعرًا أو قريباً منه، وهكذا في الشأن الديني والاجتماعي والسياسي والعلمي.

وهذه الضابطة من شأنها أن تقنن حركية وعملية النقد وتحلّلها في

إطارها الصحيح، فليس سليماً أو مبرراً أن يحاكم شخصٌ عادي لم ينته من دراسة المدرسة كلمات ومواقف شخصياتٍ عريقةٍ في نزاهتها وتقوتها، وعرّفتُ بخبراتها السياسية والحركية، وشهدت لها العقول بمستواها الفكري، إنَّ المنتقد يجب أن يتخلَّى بمستوىٍ علميٍّ وثقافيٍّ وفكريٍّ يؤهله لتوجيه النقد، لكي يكون النقد نقداً بناءً.

ويجب أن تصاغ ساحتنا من جديدٍ بصياغةٍ تربويةٍ صحيحةٍ تحصنها من الانحراف وراء هذه الأمراض، ولتظهر من هذه الأدран.

#### الشرط (١١): مراعاة موقعية ومكانة الجهة المنتقدة:

لاشك أن هناك فرقاً واضحاً في النقد بين الصديق وصديقه، والزوج وزوجه، والولد والوالد، والتلميذ وأستاذه، حيث يكنَّ الولد والتلميذ احتراماً خاصاً للوالد والأستاذ.

يقدم سماحة آية الله المصباح اليزيدي (دام ظله) المثال التالي: (هناك قداسة خاصة للإمام ونائبه، وقداسة هي الحب الممزوج بالاحترام والتواضع، وأن الولي الفقيه هو بمنزلة نائب المعصوم فإنه يتمتع بقداسة خاصة من هذه الناحية، ومن الضروري مراعاة الاحترام والأدب التام تجاهه، كما أنه من اللازم على الجميع حفظ حرمه وتبجيل شأنه، ولهذا فيجب أن يكون النقد بأسلوبٍ لا يمس بتاتاً بقداسة وجلال مكانة الولي الفقيه).

#### الشرط (١٢): الوعي للأعداء وأخذهم بنظر الاعتبار:

فينبغي أن يكون النقد ذكياً مرتباً حتى لا يستغله الأعداء فيكون وسيلة بأيديهم.

## **أخطار النقد المدام:**

هناك مجموعة كبيرة من أخطار النقد المدام. منها ما نعيشه ونتلمسه اليوم فيما بيننا على المستوى القريب، ومنها ما يكون بعيد المدى يستغرق وقتاً ليظهر على السطح لكنه إذا ظهر فجأةً يكون متجرداً يصعب اجتثاثه، ومنها ما يكون مصاحباً للمنتقد في حياته الأخرى حال بقية أعمال الإنسان. ومن جملة أخطار النقد المدام:

- التفكك والانقسام الداخلي.
- تفتيت الصفة المؤمن.
- تشتيت القوى المؤمنة وتمزيقها.
- تقديم معلوماتٍ مجانيةٍ للأعداء.
- تعريف الأعداء بثغرات ونقاط الضعف.
- سحب وإضعاف الثقة والاطمئنان بالرموز والجهات المؤمنة الفاعلة والمؤثرة.
- إضعاف ولاء الناس للقيادة الإسلامية الشرعية وشل وإضعاف قوتها في القيادة والمواجهة والمناورة.
- خلق ثغراتٍ وقنواتٍ ينفذ ويتسلل منها المترбصون والمغرضون المادفين لإجهاض التوجه الإسلامي الأصيل.
- استنزاف الطاقات والكوادر في حروبٍ وهميةٍ، ويخلق أمامهم أعداءً وهميين، ويبعدهم عن العدو الحقيقي والأهداف الحقيقية للمرحلة.

- النقد المدام لا يعالج المشاكل والأخطاء بل يزيد منها و يجعلها متفاقمةً و منتشرةً، و يؤدي لخلق مشاكل جديدةٍ.
- تقديم خدماتٍ مجانيةٍ للاستكبار العالمي خصوصاً في مثل هذه الظروف الحساسة من تاريخ الأمة الإسلامية.
- للنقد المدام آثاره على الحياة الأخروية للإنسان شأنه شأن بقية الذنوب خصوصاً الغيبة و هتك ستر المؤمنين و تزييق صفهم، وهو من الكبائر الموبقة والعياذ بالله تعالى منها.

#### **معالجات النقد المدام:**

- أن يتأمل و يعي الناقد لقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، ﴿وَقِفْوُهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا﴾.
- حمل الناس محمل الخير و حسن الظن بهم و بأعمالهم.
- النظر لعيوب النفس قبل عيوب الآخرين.
- الالتزام بتطبيق قواعد النقد البناء.
- وعي أخطار وسلبيات النقد المدام.
- تهذيب النفس و تزكيتها وفق مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

من خلال هذه السطور ووعيها والالتزام بما كان صالحاً منها عملياً في ممارسة النقد عندها يأخذ النقد شرعيته ويدخل في إطار الأحكام الإلهية المستحبة بل والواجبة أيضاً. وأما بالتهاون في هذه الضوابط والشروط

للنقد قد تتحول عملية النقد إلى الحرمة الشديدة بل قد تكون من أشد الكبائر والعياذ بالله تعالى.

وما علينا إلا مراعاة هذه الضوابط والشروط في النقد لتفريغ ذمتنا أمام الله تعالى، أما الرد من الطرف الآخر فإنه أيضاً قد يخضع لضوابط يجب علينا الالتفات إليها، يقول سماحة آية الله الشيخ مصباح اليزدي (دام ظله) (إننا لا يجب أن نتوقع الرد الإجمالي أو التفصيلي عن كل ما نقدمه من مواضيع ونقدي، حيث إن الإفصاح عن الأهداف المختلفة والمشاريع والتدابير السياسية ليس ميسراً دائماً للعموم، وذلك بسبب ما تتسم به القضايا السياسية والقرارات الاجتماعية الجمة من تعقيدٍ، وكذلك بسبب إمكان استغلال العدو لما يُكشف عنه من أمورٍ غير أنه من المؤكد أن النقد والاقتراحات المفيدة ستؤخذ بنظر الاعتبار).

ونختتم بوصيَّةٍ مشفقةٍ من وصايا إمام المسلمين ومرجعهم القائد الخامنئي (دام ظله): (إن من أشد العيوب بالنسبة للناشطين السياسيين العمل على إثارة التفرقة والانشقاق وتربص بعضهم ببعض، حافظوا على وحدة الكلمة، وإن أسوأ الأفعال أن يتعرض مسئولو النظام للتشهير من قبل أناسٍ آخرين من يخضع أحد المنابر لتصرفهم. هناك فرقٌ بين الانتقاد البناء وبين المدم؛ فالانتقاد البناء حسنٌ ونعمَةٌ، وإذا لم تنتقد الحكومة أو سائر المسؤولين فإنهم لن يطلعوا على عيوبهم، فالانتقاد في الواقع الأمر إهداء عيوبهم إليهم. والانتقاد يكون صائبًا تارةً، وغير صائبٍ أخرى، غير

أن الانتقاد البناء مختلف عن المدح، فلا تعمدوا على تحطيم السلطة التنفيذية والحكومة أو السلطة القضائية أو السلطة التشريعية. عليكم بالوحدة كما أنكم متحددين من حيث الهدف والمنطلق الفكري).

قال إمامنا الراحل الخميني المقدس بهذا الشأن: (عندما يكون النقد صحيحاً يكون مفيداً، ولكن عندما يكون النقد انتقاماً، فهو مالا ينبغي أن يكون، لأنه خالف للمعايير، فليس من الصحيح أن يقمع واحد الآخر على صفحات الجرائد بسبب ما بينهما من خلافٍ، ولكن يجب توجيه النصيحة لمن ارتكب خطأً، فالنقد هو الصحيح وليس التشهير).

ومن كلمات الإمام الخميني المقدس: (إن النقد البناء وفي محله يبعث على رشد المجتمع).

وقال سماحة آية الله الشيخ عيسى قاسم (دام ظله) في هذا الشأن: (ليس أحدُّ منا فوق الخطأِ وال الحاجةِ إلى أن يسمع من إخوانه النقد والتوجيه والتسديد).

والحمد لله رب العالمين.

**ملاحظة:** بعض الشروط مستفادةً من كتاب (شبهاتٌ وردودٌ) لسماحة آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي (دام ظله).

لسامي العجمون الالسيبي

علي فاضل الصددي

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم على محمدٍ وآلـهـ.  
اعتبـر عـلـمـاؤـنـا (أـيـدـهـمـ اللهـ) لـسـمـاع دـعـوـيـ المـدـعـيـ بـأـنـ تـكـون دـعـوـاه لـنـفـسـهـ  
أـوـ لـمـنـ لـهـ الدـعـوـيـ عـنـهـ بـالـوـلـاـيـةـ أـوـ الـوـكـالـةـ أـوـ الـوـصـاـيـةـ أـوـ الـقـيـمـوـمـةـ، أـوـ كـانـ  
المـوـرـدـ مـتـعـلـقـ حـقـ لـهـ مـنـ رـهـنـ مـثـلـأـ، أـوـ يـكـوـنـ المـدـعـيـ ذـاـ عـلـاقـةـ بـاـ اـدـعـاهـ بـنـحـوـ  
مـنـ الـأـنـحـاءـ كـالـأـمـيـنـ مـنـ الـوـدـعـيـ وـالـحـارـسـ وـالـمـسـتـعـيرـ وـالـمـلـتـقـطـ، فـلـاـ تـسـمـعـ  
دـعـوـيـ غـيرـ الـمـالـكـ مـنـ دـوـنـ تـعـلـقـ لـهـ بـعـالـهـ أـوـ حـقـهـ؛ لـأـمـورـ أـهـمـهـاـ -ـغـيرـ الـإـجـمـاعـ  
فـيـ الـجـمـلـةـ الـمـدـعـيـ فـيـ الـمـسـتـنـدـ<sup>(1)</sup>ـ أـمـرـانـ:

**الأول:** انصراف الأدلة عن سعاد دعوى الأجنبي؛ إذ هو حقيقةً ليس طرفاً للمنازعة مع المُدعى عليه، وبعبارةٍ أخرى: في فرض كون الداعي تبرعيةً بحيث لا يتعلّق بها المُدعى، فلا تدخل واقعتها في الخصومة والمنازعة التي أمرَ

أطراها برفعها إلى العالم بالأحكام، ونهوا عن رفعها إلى قضاة الجور.

بل إنَّ الحُكْمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي قَوْلِهِ سَبَحَانَهُ وَأَنَّ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَقَوْلِهِ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، وَقَوْلِهِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ<sup>(٢)</sup> يُسْتَبِطُنَ اسْتِحْكَامُ الْخُصُومَةِ وَالنِّزَاعِ سَلْفًا، وَمَعَهُ يُطَلَّبُ الْحُكْمُ، وَهُوَ الْفَصْلُ وَقْطَعُ الْخُصُومَةِ، وَلَا خُصُومَةٌ بَيْنَ الْأَجْنَبِيِّ وَالْمَدْعُى عَلَيْهِ.

الأجنبي المُخضٌ<sup>(٣)</sup>.

وقد استثنوا من ذلك الدعاوى الحسيبة من المحتسبين وإن كانوا أجانب، فتسمع دعوى الأجنبي إيفاء الميت - الذي له صغارٌ ديناً يدعى عليه غيره، ويعلم الإيفاء هذا الأجنبي ويعلم شهوده عليه، كما تسمع دعواه إيفاء صديقه أو جاره لدين يدعى عليه غيره ليأخذه من ماله، أو دعوى الجار سرقة ثالثٍ مال الجار الغائب ويريد السارق الفرار، أو دعوى الأجنبي تفريط الولي أو الوصي بالمولى عليه، إلى مثيل ما ذكر<sup>(٤)</sup>.

ونلفت النظر إلى ضرورة توفر شرطٍ لسماع الدعاوى حسبة، وهو أن يخشى فوتُ الحق أو المال أو ضياعه على صاحبه على تقدير عدم رفع المحتسب للدعوة، بأن تأخرَ إلى مجيء الغائب أو إدراك الصبي، وينبغي أن يكون هذا الاشتراط واضحًا، إذا ما عرفنا أنَّ الحسبة (بالكسر) هي الإitan بالأمر من باب كونه أمراً قريباً، ويعلمُ أنَّ الشارع يُريد إيقاعه والاهتمام به في الخارج، ولا يرضى بتركه وإهماله، ولم يُسند اللازم تجاهه إلى معينٍ.

ثم إنَّ مقتضى ما ذكرَ ليس جواز تصدِّي المحتسب لرفع الدعاوى وحسب، بل وجوب ذلك كفايةً من باب إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا ما بنينا على أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (هو الحمل على الطاعة قولًا أو فعلًا) وأنَّ النهي عن المنكر (هو المنع من فعل المعاصي قولًا أو فعلًا)<sup>(٥)</sup>، فإن دعوى المحتسب بموجب هذا التحديد تحول بين المدعى عليه وبين فعل معصيةٍ، وهي أكل مال الغير بلا وجه حق<sup>(٦)</sup>، وعليه فيكون وجوب رفع الدعاوى بشرطه وجوب النهي عن المنكر هذا.

وما سُقناه من أمثلةٍ تتوفَّر على الشرط الآنف الذكر، فلا يحمل عنوان

الجار أو الصديق أي خصوصية.

تقريبات سماع دعوى المحتسب:

وقد عمدوا إلى تقريب سماع دعوى الأجنبي حسبة - بعد الفراغ من  
وجوب إقامتها كذلك - بوجوهٍ

**الأول:** ما أفاده المحقق النراقي قلت<sup>(7)</sup> من أن المحتسب وإن لم يكن مأذوناً  
صريحاً أو بالفحوى في الترافع عن صاحب الحق، إلا أنه مأذون بشاهد  
الحال. وهو حسن؛ فما من صاحب حقٍ أو مالٍ إلا ويرضى بحفظ الآخرين  
ماله وحقه فيما إذا كان في معرض الغوت أو الضياع. وأما الصغير والمحنون  
فإنهم - كما أفاد في موضع آخر من المستند - وإن لم يصلحا للإذن، إلا أنه لا  
يخلوا أحدهما عن ولٍ ولو كان الولي العام، وإذنه قائمٌ مقام إذنه قطعاً،  
فالعلم به أو الظن كافٍ<sup>(8)</sup>.

أقول: لا دليل على كفاية الظن بالإذن، فيتجه منع كفايته، اللهم إلا أن  
يريد به ما هو متاخمٌ للعلم، وهو ما يسمى بالعلم العادي.

**الثاني:** ما أفاده السيد الزيدي قلت<sup>(9)</sup> من عدم انصراف العمومات عن  
مثله.

ووجه ذلك<sup>(10)</sup> بتوفُّر الدعاوى الحسبية على المعيار في سماع الدعوى،  
وهو عقلائيتها، فالعمومات منصرفةٌ عن دعوى الأجنبي المحسن لعدم  
عقلائيتها وليس كذلك فيما إذا كانت دعوى الأجنبي من باب الحسبة.

ووجه منع الانصراف المدعى أيضاً<sup>(11)</sup> بكون القضاء من مظاهر ومصاديق

إقامة القِسْط، فلو أراد أجنبي استنقاذ حق آخر، فلا يوجد من سَمَاع الدُّعُوى بالخصوص فيما إذا كانت للمدعي بِيَنَّهُ.

**أقول:** ولعل ما أفاده المحقق التراقي بمعية ما أوضحتنا به هو منشأ منع الانصراف الذي ذكره السيد قلبي.

**الثالث:** ما أفاده أحد أعلام المعاصرين<sup>(١٢)</sup> - تبعاً لصاحب الجواهر - من أن سَمَاع دُعُوى المحتسب من باب ولايته، ومعه يكون سَمَاع دُعَواه لا لأجل الاستثناء من عدم سَمَاع دُعُوى الأجنبي، بل من جهة كون المحتسب أحد من له الدُّعُوى.

وقد وجَّه ذلك بِأَنَّه (كما في مورد التصرف في مال الغير حسبة) يكون للمتصرِّف ولاية ذلك التصرف، كذلك في مورد لزوم المرافعة يكون للمحتسب ولاية الدُّعُوى في ذلك المال لمالكه القاصر أو الغائب).

وقد يُشكُّلُ في اندراج المحتسب في مَنْ له الولاية بدعوى عموم الولاية لثلة، بِأَنَّه - رغم انعقاد الإجماع على سَمَاع دُعُوى مَنْ له الولاية - إلا أنَّ غير واحد قد صرَّح بإرادة الأب والجد من الولي<sup>(١٣)</sup>.

**أقول:** إنَّ الأبَ والجدَ هما القدر المتيقن من منعقد الإجماع، فلا يتناول غيرهما، إلا أنَّه لا يمنع من سَمَاع دُعُوى غيرهما كالمحتسب بما تقدم ويأتي من وجوه؛ فإنه ليس للإجماع المدعى عقد سلبٍ وراء عقد الإيجاب.

**الرابع:** ما ألفت نظري إليه أحد الأساتذ (سلمه الله) من لغوية لزوم إقامة الدُّعُوى الحسبية المقرر سلفاً إذا لم تسمع.

وكيف كان فهذه الوجوه الأربع أو بعضها كافٍ لإثبات جواز سَمَاع

دعوى المحتسين، فيحكم الحاكم بما تقتضيه الشريعة من موازين في باب القضاء، وأما ما يلزم الحاكم بعد السماع وما يجوز وما لا يجوز للمحتسب بعد الدعوى فهو أمرٌ آخر؛ إذ تختلف آثار الدعوى في الموارد، فليس للمحتسب الحلف ولا ردُّ اليمين ولا ينفذ إقراره ولا يجوز له أخذ المال على تقدير ثبوته.

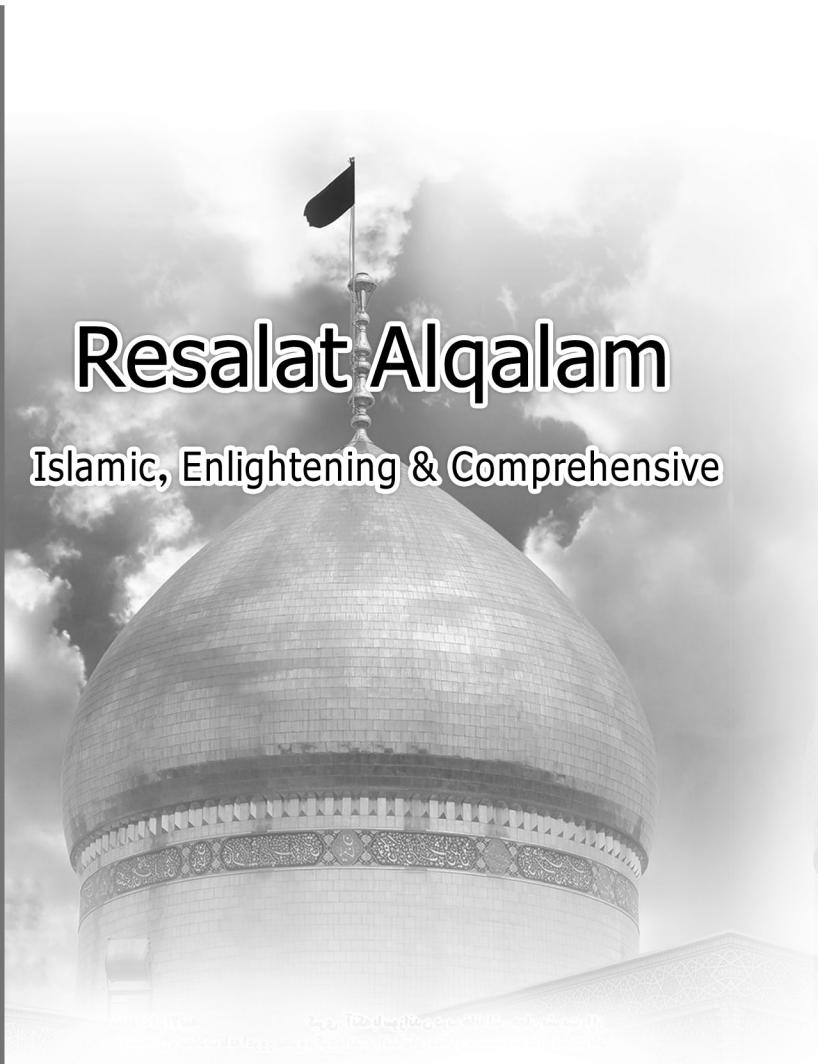
والحمد لله أولاً وآخرأ وصلى الله على محمدٍ وآلـهـ.

## المواهش:

- (١) مستند الشيعة ١٧: ١٤٦.
- (٢) المائدة: ٤٩، النساء: ١٠٥، سورة ص: ٢٦.
- (٣) ومن هنا قد يستغرب ما ذكره أحد الأعلام قلبي من سمع دعوى ذوي المالك وأقربائه، متعللاً بانصراف أدلة المعن عن مثلها. "كتاب القضاء ٨٢:٢ للسيد الكلباني قلبي".
- (٤) لاحظ للمزيد كلمة التقوى ٨:٨ م ٧٢:٨ م، فقه الإمام جعفر الصادق ع٦:٦ ح ٧٧.
- (٥) الروضة البهية ٢: ٤٠٩.
- (٦) لاحظ للاستزادة تحرير الوسيلة ١: ٤٠٤ م ٢ ، الأحكام الشرعية: ٣٧٣ م ٢١٧٨ .
- (٧) مستند الشيعة ١٧: ١٤٦-١٤٨.
- (٨) مستند الشيعة ٤: ٤٠٢.
- (٩) ملحقات العروة الوثقى: ٤٦٦-٤٦٥.
- (١٠) نظام القضاء والشهادة ٢: ٥٠.
- (١١) مباني القضاء والشهادات: ١٣٨.
- (١٢) أساس القضاء والشهادة: ٣١٠-٣١١.
- (١٣) لاحظ جواهر الكلام ٤٠: ٣٧٧.



- General Supervisor & Executive Manager:  
Abdulla Ali Al daqaq
- Editor in Chief:  
Ali Ahmad Alkarbabadi
- Managing Editor:  
Ali Ahmad Aljofairi
- Publishing Committee:  
Fadhel Abdujaleel Al Zaki  
Jaffer Abdulmahdi Shehab  
Saeed Hassan Al Madeh



# Resalat Alqalam

Islamic, Enlightening & Comprehensive

A Periodical Magazine Issued by the  
Bahraini Students  
of the Educational Hawza the  
Holy City of Qom